عبد الله خليفة

عثمان بن عفان شهيداً

رواية

HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

رياض الريس للكتب والنشر
RIYAD EL-RAYYES BOOKS

عبد الله خليفة

عثمان بن عفان شهيداً

رواية

رياض الريس للكتب والنشر
RIYAD EL-RAYYES BOOKS

عبد الله خليفة
عثمان بن عفان شهيداً
رواية

الفصل الأول

OTHMAN IBN AFFAN›S MARTYRDOM

By
Abdullah Khalifah

٢٠٠٨ First Published in March

.Copyright # Riad El-Rayyes Books S.A.R.L

BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyesbooks.com
٨-٣١٧-٢١-٩٩٥٣ ISBN

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in anyform or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف:
الطبعة الأولى: آذار/مارس ٢٠٠٨

فوجئ عثمان بن عفان ووجوهُ الرجالِ كلها تتوجهُ إليه، وهو الجالسُ بصمتٍ وبهدوء، أن عبدالرحمن بن عوف يختلي ببعض الصحابة، وتدور حوارات مطولة، ومناورات كثيفة مرهقة، نهاراً وليلاً، والستة الذين اختارهم عمر بن الخطاب لخلافته محصورون في هذا المبنى، والناس في المجلس تنتظر على أحر من الجمر.
كان المجلسُ حاشداً والكلُّ يرتقب المشاورات المطولة بينهم في الغرف الخلفية.
كانت صيحاتٌ غريبة تصل إلى أذنيه. هذا صوتُ عمار بن ياسر يرتفع:
ـــ ليس ثمة أفضل من علي بن أبي طالب.. تعودُ الخلافة إلى أهلها!
فترتفع صيحاتٌ ويميزُ صوتَ عبدالله بن أبي سلول:
ـــ عثمان بن عفان لها، هو راعي المكارم..
وثمة صرخات تردّ عليه:
ـــ اسكت! أتعلمنا أنت؟
وعبدالرحمن بن عوف يستدعي علياً ويغيبُ عن ناظريه وتغيبُ الأصواتُ سوى همهمة لا يتبينها، ثم يسمع صوت عبدالرحمن:
ـــ تعالْ يا عثمان بن عفان!
إذن لم ترسُ على علي..
هي لك يا عثمان .. هي لك بإذن الله!
ويمشي بهدوء وبطء نحو عبدالرحمن الذي يتكلم قائلاً:
ـــ أتمضي على سنّة النبي صلى الله عليه وسلم والخليفتين من بعده؟
ـــ نعم بإذن الله!
يقول عبدالرحمن:
ـــ إنني أبايعك خليفةً للمسلمين!
أي حدثٍ هذا؟ أي قمةٍ يرتقيها الآن؟ بعد الرسول وأبي بكر وعمر، هو يرتفع إلى ذروة الإسلام، وهؤلاء الرجال الكبار، الذين انغمروا في الغزوات والفتوح، وخاضوا في بركِ الدم وجبال العظام البشرية، وصيحاتِ الأشباح ودخانِ الحرائق، يتنحون وهو الرقيقُ الرفيق، الذي بالكاد كان يذهب لمعركة، أو يرتفع فوق الهامات والأجساد ليقول خطبة عصماء، أو يلتف وراء التلال ومستنقعات الدم، هو العائش دوماً بين الحرير والخز والأكياس وجوالات القمح، يُوضع على الكرسي الرفيع لتحدق فيه الأبصار وتنتظر كلماته الأسماع!
وينظرُ متردداً متوتراً متعرقاً سعيداً بهذه الوجوه التي يحبها والتي قدرته فوق نفسها، ورفعته إلى المكانة العليا، وخجلاً منها لأنها فضلته على أنفسها!
يصافحونه واحداً واحداً.
هذا هو التاريخ يخطو من القوة والألم إلى الرفق والحب!
كلّ يد لها ملمس خاص، وتضاريس، وظلال..

هذه يد سعد بن أبي وقاص، هذه يد من أطلق أول سهم في حروب المسلمين، ودافع عن مقام النبوة، وانطلق يجمعُ الصدقات، ويجيشُ الجيوشَ، ويندفع في أرض العراق كعاصفةٍ من الرماح والسيوف، إنه يضع هذه اليد التي أطاحت قادة فارس الكبار، في يده هو، وهو يبايعه أن يكون زعيماً له وللناس كافة..

وهذه يد علي بن أبي طالب، هذه اليد القادمة من ساعد كبير القوة، والتي تمسكُ يدَهُ بتوترٍ شديد، وكأنها لم ترد أن تضعَ نفسها هنا، هذه اليدُ التي حملتْ سيوفاً لا أول لها ولا آخر وهي تضربُ المناوئين، وتفتحُ الدروبَ المغلقة بالحصى والأشواك والحديد، ألم يكن هو الأجدر منه بهذا المنصب الجليل؟

ماذا فعل هو من فعالٍ ليتبوأ هذه المكانة العالية بكل ما تتطلبهُ من جسمٍ مدرع ونفسٍ صخرةٍ وهمّةٍ وثابة وقلبٍ جسور؟

أهم يتخلون عنها لكي يختبرونه أو هو حلم أم أن السلطة الآن تحتاجُ إلى شيءٍ آخر غامض لا أحد يدرك كنهه والكلّ يريده؟!

وهذه يدُ الزبير، يد امتلأت بالبضائع وأيضاً بالسيوف واغتسلت بالدماء.. يتطلع فيه بكراهية لا تخفى!

إن الكلّ يتفوق عليه في هذا المجلس، الكل وراءهُ سلسلةٌ من الأنوار والأعمال والخصال.. لكنه أيضاً لا يقل عنهم مكانة وتضحية، كانت الدعوة تنمو بكلماتهم وسيوفهم، وبكلماته وأمواله التي تتدفق لتشتري السلاح، وتجندُ الرجالَ، وتساعد الأرامل.. كان هو خلفهم يغوصُ بين أكياس القمح والسكر وسلال الفواكه ويعصرُ من لحمه لكي يغذيهم ويشتري سهاماً لهم.

وكلما صاح الصائح من يسدد هذا الثمن وله الأجر يندفع هو، وكلما اشتد الجوع جاءت قوافلهُ محملة بالطعام، لها أول وليس لها آخر.. لقد كافأه القومُ أخيراً، عرفوا قدره الكبير وهو منزوٍ بعيد عن تدافعهم على الكرسي العالي!

وأي دوي سيكون لهذه المصافحات الآن وراء هذه الحجرة، وكيف سيرى أهلهُ إن أصبح الخليفة، أمير المؤمنين، وإن الناس تنتظر أفعاله.. وكيف ستزغرد أم عمرو وكيف سينفجر أبناؤه بالفرح!

(لم يُضع أبوكم حياته سدى!).

كان علي بن أبي طالب يغمغمُ موجهاً كلماته لعبدالرحمن بن عوف:

ـــ كلما اقتربتْ الخلافة منا أبعدتموها عنا. وأنت لم تحولها عني إلا حتى تقربها لنفسك، ولكن صبراً جميلاً!

ماذا يقول علي وعن ماذا يتحدث؟ هل هناك مؤامرة عليه؟ وهل هم يقصدون إزاحة علي ليضعوه هو ويتعبوه بهذه السلطة ويكيدوا للآخر السامي والرفيع والجليل؟! لا لا أظن ذلك، ولكنها العواطف الجياشة السريعة التقلب..

إن الوجوه ليست فرحة، بل هي جامدة كأنها تقوم بعمل مفروغ منه، وكانت الكلمات تملأ رأسه كثيراً قبل هذه الجلسة، فسعد يندفع نحوه ويسأله كثيراً، ويحاول أن يسبر غوره: إذا لم تختر نفسك فمن هو الأقرب إلى ترشيحك؟ وعبدالرحمن بن عوف لا يتركه وعمرو بن العاص يزورهُ كلّ يوم..

ويجد أقرباءه قد داوموا على الالتصاق به أكثر مما فعلوا خلال السنين الأخيرة، ولا يكاد مروان بن الحكم يفارقهُ، وهو يهمس في أذنه (من يستطيع أن يتبوأ مركز الخلافة العظيم غيرك؟ سماحتك ونبلك واتساع صدرك صفات تتجمع فيك دون غيرك فتجعلك سيرة جديدة في التاريخ!)..
ومشت الثلة، وفتح عبدالله بن عمر الباب وخاطب الحشد المتجمهر من الناس:
ـــ اتفق المجتمعون على.. اختيار..
حدثَ صمتٌ رهيب.
ـــ على اختيار.. عثمان بن عفان خليفة.. للمسلمين!
اختلطتْ أصواتٌ متضاربة، وتفجر كلامٌ متقطع، واندفعتْ صيحات، وجرى تهليلُ جماعةٍ صغيرة راحت تصخبُ بأصواتها..
وهو يخرجُ للناس، لهذا الجمع الغفير الذي ظلَّ مُعسكِراً أياماً عدة، وكانت غمغمتهُ يسمعها جيداً (ليس ثمة أفضل من علي)، (سعد بن أبي وقاص لها)، وليس ثمة أحد يرفع اسمه سوى بضعة أفراد من أسرته، كأن هذا الجمهور الآن قد فوجئ كثيراً باسم الرجل الذي تم اختياره.
وراح عبدالرحمن بن عوف يشرح متى تم اختيار عثمان وكيف أنه وافق على احتذاء سيرة الراحلين أبي بكر وعمر، فيما قال علي إنه سيعملُ برأيه، وقال عبدالله بن عمر شيئاً لم يسمعه، لكن الوجوه الكثيرة التي أمامه كانت مذهولة، وكأنها تبحثُ عن شخصهِ الضائعِ بين العمالقة، ولم يكن هناك فرح بل حل صمتٌ عميقٌ ودهشة ضارية، بل وحزنٌ كبيرٌ ارتسم على بعض الوجوه!
أيكونُ يومُ ارتفاعهِ إلى سدةِ الحكم يومَ حزنٍ لنخبة أهل المدينة؟ أهذا ما يستحقهُ ذو النورين؟ إذن لم دفعه أولئك الأربعة الكبار إلى الأمام وجعلوهُ يقفزُ على مكانةِ علي، ثم بدا أنهم أمام الجمع تخلّوا عنه؟!
وراح الناسُ ينتظرون ما يقول، وهو حائرٌ، دهش من أن عليه أن يرتفع فوق المنبر ويخطب، منطلقاً بكلمات كبيرة، لا يعرفُ كيف تتجمعُ في رأسه، وهو ليس لديه سوى كلمة واحدة (سأعمل بما يرضي الله) أو (لن تروا مني سوى الخير)، وليس ثمة شيءً آخر، وأدرك أنه فوجئ بهذا الاختيار، وإن المشي على سكة عمر بن الخطاب مسألة صعبة بل مستحيلة، لكنه وافق على ذلك، ولكن في قرارةِ نفسه صمم على أنه لن يفعل شيئاً سيئاً، بل سيريحُ الناسَ أكثر مما يعتقدون، وأنهم سيجدون أيامه أفراحاً مستمرة وراحة عظيمة، فليتنفسوا الصعداء إذن..
يتلجلجُ وهو يغمغم بكلمات مختصرة، والناس في ذهول، ويقول بأنه ليس صاحب خطب وبيان، فقد أبعدته التجارة عنها، لكنه صاحب أفعال وسيرون!

٢

النجومُ تقولُ شيئاً آخر، والضبابُ الغريبُ يشعّ بأسئلةٍ، وعليٌّ يمضي مع بنيه وصحبه، تحدقُ فيهم أضواءٌ وتتسلطُ عليهم ظلماتٌ مباغتة.
صمتٌ عميقٌ وهم يسيرون معاً، والحصى يئزّ من تحت نعالهم، وطرقُ المدينة هي نفسها، والبيوت بجدرانها، لكنها غدتْ غريبة، لم تعد الوجوه أليفة، ولا الأصوات، فأين ذهب الناس؟
أبناؤه صامتون وأقرباؤه وجماعته يحيطون به، وهو حزين، وحين يفتحُ البابَ ويرى عمه العباس، يقول بصوتٍ أليم:
ـــ شيءٌ غريب.. ومذهل!
كانت الأخبارُ تمشي ببطءٍ شديد، يحملها الخدمُ والأبناءُ والأصدقاءُ بصعوبة وهم يتوقفون ويتحدثون.
قال عمه بصوتٍ خفيض:
ـــ مرةً أخرى أُبعدتَ عن الخلافة!
ـــ لكنها ليست كالسابق.. إنها الآن ضربة قاسية.. شيءٌ لا يصدق يا عماه!
ترنح أبناؤه وجلسوا بصمتٍ، قال علي:
ـــ كأنهم اتفقوا أن يبعدوها عني بكل طريقة.. ولم يجدوا سوى عثمان لكي يختبئوا وراءه ويسلموه أمرَ المسلمين.. فيا للكارثة!
وحدقَ فيه الجميعُ بذهولٍ. إن وجهَهُ المنفعلَ لم يكن يوماً بهذا الوجع، وحتى في المآسي الكبيرة التي تغلغلتْ بأنصالها في لحم العائلة لم تغرسْ أوجاعَها بمثلِ هذه الشدة!
خفف الحسنُ من المصاب قائلاً:
ـــ إنه رجلٌ كهل وطيب فعلينا الانتظار..
صرخ علي:
ـــ هذه هي المشكلة.. رجلٌ كهل طيب، عاش حياته بعيداً عن عواصف الحكم، ولم يمشِ في أشداقِ الوحش، ولم تنغرز فيه الحرابُ، ولم يتحول جلده إلى صخرٍ صلد.. والسلطة مجموعة من الخناجر والحراب.. وما تلبث الذئاب أن تتدفق من كلّ حدبٍ وصوبٍ.. وبعدئذٍ سنجدُ جبالاً من الشكوكِ بيننا، ويتجول اللصوصُ بين أسرّتنا، ومشاعرنا، وغرفنا، وأولادنا..!
نهض العباس من فوق مقعده وقال بحماسة:
ـــ هل هي المرة الأولى التي نكتوي فيها بأفعال بني أمية..؟ منذ أن اندفع أمية ذلك الرجل الدميم القصير الأعمى في مكة وراح يتاجر بالأعراض والأشياء ويرتبط بالخدم والغرباء وبنو هاشم على خلاف معه ومع أسرته، ومنذ أن نُفي من مكة إلى الشام وهم أقوياء يتاجرون بكل شيء؛ السلع والأخلاق!.. هل تعتقد أن هذه العداوة بين أهل الفجور والظلم والظلام وبين أهل العدل ستزول؟ هل تعتقد بأنهم يتركونها لك؟!
ـــ لا أظن ذلك!
ـــ إذن اتركوه وقاطعوه.. دعهم يغرقون بسوءِ أعمالهم!
صمت علي مفكراً بتوتر وعمق. قال الحسن بهدوء:

ـــ لا بد من تقديم النصيحة له يا عماه!
ـــ أي نصيحة تقدم لهؤلاء القوم الذين امتلأت قلوبُهم بالعداء للخير.. وقفوا طويلاً ضدنا وحاربوا الإسلامَ بقوةٍ.. وامتلكوا كلَّ شيء، وتسللوا في كلِّ مكانٍ في عهد الشيخين.. وأبعدونا.. وحكموا الأمصارَ وجمعوا الأموالَ كالجبال وها هو معاوية يحكمُ دمشق منذ سنين ينتظرُ مثل هذه الفرصة الكبيرة.. لن يبقى لكم شيءٌ يا بني هاشم.. منكم الرسالة وعليكم العناء والعذاب..!
قال الحسين:
ـــ لكن يا عماه، عثمان بن عفان لم يكن مثل هؤلاء.. لقد كان يتيماً مثل النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم وعذّبه عمهُ وقومهُ أشد العذاب فصبر وقاوم.. ثم هاجر إلى الحبشة مع من هاجر وتعذب مع المسلمين الأولين، وعاد وهو متزوج لابنة النبي وعاش في المدينة جنباً لجنب معه، وتفقّه في القرآن.. ثم ماتت ابنة النبي فزوّجه أختها، فكيف يمكن أن نساويه مع أولئك القوم القساة الفاسدين...؟!
رد العباس بقوة:
ـــ لا يخرج الإنسان من عشيرته، وسيظل ملتحماً بها.. لن يكون عثمان سوى أموي مهما طمعتم في أخلاقه وشمائله!
قال الحسن:
ـــ أضيفُ إلى كلام أخي أن الرجلَ كان شديدَ الكرم والعطاء.. فإن احتاج جيشُ المسلمين إلى سلاح كان متبرعاً، وإن دهمت الناسَ مجاعةٌ أسرع بتوزيع طعام قافلته على الجياع والمحتاجين.. وإن استغل تاجرٌ خبيثٌ بئرَ الماء التي تسقي الناس سارع بشرائها وجعل الماءَ مجاناً يشربُ منه الجميع، وفي كلِ شربةِ ماءٍ يقول الإنسان ليرحمك الله يا عثمان! هل هناك فضائل أكبر من هذه؟
رد العباس:
ـــ وكم كان يلحُّ على إعادة عمه الحكم بن العاص من الطائف.. وذهب للنبي وأبي بكر وعمر من أجل إعادة ذلك الرجل الذي أرهق المسلمين بتعذيبه واعتداءاته! بل وحاول أن يجعل أخاه في الرضاع عبدالله بن أبي السرح الذي افترى وادعى بأنه يُوحى إليه كذلك وهو مجرد كاتب وحي.. سعى عثمان بنفسه حتى يُعاد إلى صفوف المسلمين ويغدو من المبرزين فيهم! هذا أخوه في الرضاع فكيف بأبنائه وإخوته من اللحم والدم!
صمتَ الجميع. كان العباس بجذعهِ القوي كأنه شجرة قديمة، تظللُ هذا الحشدَ من بني هاشم، بالورق والظلال والمعنى.
وحين وجدهم صامتين تطلع إلى علي قائلاً:
ـــ أقول إنه لا ينفع مع هؤلاء غير القوة والشدة، فإذا تماديتم في طيبتكم ومددتم يد التعاون قووا أنفسهم وغلبوكم.. وعثمان بقعةٌ سوف يتجمعُ عليها كلُّ ذباب بني أمية وغيرهم من الطامعين، قد لا يكون من جنس الذباب.. لكنه سوف ينثرُ لهم كلَّ سكر يستطيعُ أن يمدهم به.. فيتغلبون عليكم ويحكمون للأبد!

انفتحت السماءُ بأضوائها ونجومها له. تدفق غناءُ الرعاة وصدحت الطيورُ والشعراء، ونُثرتْ نقودٌ صغيرة للأطفال فضجوا بالصياح وامتلأت أفواههم بالحلوى، واندفعتْ نسوة بدفوفهن وأصواتهن وتحرك الشجرُ والثمر إلى الساحة والأفواه والأرواح!
ليس ثمة مثل عيشك يا عثمان، تمتد بيوتك وبضائعك وشبكة نقودك إلى التلال والأقمار، ويرتفعُ جسمك مهيباً جميلاً مضيئاً، وتغدو الأطاييبُ جزءاً من غذائك وكلماتك ومشاعرك!
لتمتدّ أياديك البيضاء إلى الرفيعِ والوضيعِ، لترفع الغمّ عن أهلك، وتجعل الكلمات الطيبات تنتقلُ إلى الأمصار وإلى الناسِ الجياعِ للنور والسعادة، ليعش الجميع في رفاه العيش وكرم الله الذي أسبغه على الناس.. كل الناس!
يتدفقون من كلّ حدبٍ وصوب، أهلك يطلعون من تحت الرمال ومن بين القصور وعبر الفلوات، يزحفون، يطيرون في لحظات وامضات..
هم الذين عذبوك وعزلوك، وزوجوا أمك لرجلٍ قاس، لكنها لم ترضخ له، وظلت تحبك، وها هم الآن يصفقون لأي نأمةٍ تنطلق عفو الخاطر من شفتيك، وتنفتحُ صفوفهُم حالما تخطو، ينحنون ويقترحون بأصواتٍ هامسة، ويدنو مروان بن الحكم، يهمسُ:
ـــ يا أميرَ المؤمنين..
ياه.. ما أورعها وأعظمها من كلمة! التاجرُ الذي كانت تخفيه الأكياسُ وطاقاتُ القماش يغدو حاكماً على خريطة تمتدُّ من أقصى فارس حتى المغرب!
لينتبه إلى ما يقول هذا القريب العزيز:
ـــ يا أمير المؤمنين إن عمك الحكم يرجو أن تسمح لهُ بالمجيء إلى المدينة.. بعد نفي طويل.. وبعد أن صار جزءاً من نسيج المسلمين..
حدق فيه بهدوء، إن الوجه النضر المشابه لوجهه حين كان شاباً، يذكره بهذه السحنات الأموية المتقاربة، حين تكون بهية، كأن دوراً كثيرة وعشيرة كبيرة تتنفسُ معه الآن، كأن صيحاتها في الأفراحِ ودفءِ أجسادها في الشتاء، كله يتفجرُ الآن أمامه.. والحكمُ بن العاص كم آلم الناس وعذب ولكنه صار شيخاً في الغربة، فمن سيضرّ الآن؟ ولم ذلك العقاب الذي انتهت أسبابه؟!
وكم تشفع له عند النبي وأبي بكر وعمر لكنهم رفضوا، فهل يخالف أمرهم في غيابهم؟! ألن يكون هذا مخالفة صريحة لأوامر جليلة مقدسة؟ لكن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي قال تكونُ عودة الحكم بعد موتي.. قال له ذلك والآخرون لم يسمعوه.. فكيف لا ينفذ قوله الآن؟
راح يفكرُ، أين هي المخالفة الآن؟ من هو الحكم بن العاص هذا الذي يُخشى جانبهُ في هذا الزمن؟
وتحلق أبناءُ الحكم بن العاص حوله، وأقرباء آخرون، وراحوا يتكلمون كأنهم ينطقون بما في ضميره:
ـــ لو ترى الحكمَ الآن.. لن تعرفه!
ـــ لقد هدهُ المرضُ والشيخوخة..
ـــ لم يعد العقاب ذا معنى الآن!

ـــ ألا ينتهي هذا الجور على بعض أبناء بني أمية؟
ـــ إنه أطول نفي..!
هذه هديته الأولى لأهله:
ـــ دعوهُ يرجع!
كبّروا وهللوا، وجاء نفرٌ من المحتفين وراح يسأل عن هذه الأصوات الفرحة، وفوجئ بعضهم بهذا القرار، وغمغم أحدهم:
ـــ ولكن هذا نقضٌ لكلام النبي والشيخين!
وجاء عبدالله بن مسعود بين الرجال الطوال يبحث عن فرجةٍ بينهم وصاح:
ـــ ولكنك بهذا تغيّرُ ما قالهُ السلفُ بشأنِ هذا الرجل!
صاحت أصواتٌ مستنكرة على عبدالله، وتحلقوا حول عثمان بقوة. أخذهُ بهدوءٍ وهو يقول:
ـــ سوف أغيرُ أشياءَ عديدة من الأمور السابقة، فقد جرت أمورٌ جديدة وعمّ الخير ولا بد أن أقوم بتقويم بعض السياسات التي أرى أنها يجب أن تتعدل الآن.. ليس من المعقول أن أقوم بأسر الصحابة في المدينة والحجاز وأمنعهم عن الحركة والتجارة وعن نشر علمهم بين أهل الأمصار المحتاجين لكلماتهم وفقههم..!
تطلع فيه عبدالله بدهشة وصاح:
ـــ أستفعلها؟ أتعطينا الحرية حتى بعد أن منعنا عمر رحمه الله؟!
ـــ نعم، لكم مطلق الحرية أن تسيحوا في الأرض وتكسبوا عيشكم وتعلموا الناس اللغة العربية والإسلام في مشارق الأرض ومغاربها.. ولكن لا تتاجروا بدين الله ولا تقولوا إلا الصدق..
فرح عبدالله وقال بحماسة:
ـــ والله إنك لسمح وجليل!

مهماتٌ جسيمة تتفجرُ بكلماتك في كلّ مكان من الأرض. تنهضُ مبكراً وتصلي، وتجلسُ في دار الحكم، فتندفعُ الرسائل والسعاة والخيول في كلِّ عروقِ الجسدِ المثخن بالجراح والألم والحلم، فينتفضُ جيشٌ عربي مغطى بثلوج أرمينيا، ويندفعُ في الحقولِ والمدن، فتتدفقُ الخزائنُ والمعادن في خطوطِ الفضة التي تصلُ إلى الناس وإلى هذه الصناديق المليئة، ويندفع بحارة ونجارون في الإسكندرية واللاذقية يصنعون من الخشب سفناً، تمخرُ عبابَ البحر فتردِدُ الأمواجُ كلمات النبي الأمي العربي..

صرخاتٌ من بعيد توجه لها النقود والطحين والبلح، لكن مهمات المدينة لا تهدأ، وعبيدالله بن عمر فكرتَ فيه كثيراً، حين غرز سيفهُ في جسد الهرمزان، وجفنية وابنته وفي مارة أبرياء، ودون أن تكون خليفة، وحتى وأنت تسمع حكم عمر، قلت هو حكمٌ قاس رهيب، لا تستطيع كلمات روحك أن تحوله إلى لفظ على لسانك..

(ياه ما أشقّ كلمة القتل.. كيف ينطقونها بهذه البساطة.. وما أعظم ما توصلتُ إليه، تحملتُ دية القتلى وأطلقتُ سراح عبيدالله فاندفعت الألسنة تهجوني.. ما أشد علي أن أقتل ابناً لعمر! فليرجفوا ما يرجفون!).

طرق أحدهم الباب فانفتح عن مروان بن الحكم، الذي اندفع مصافحاً ومقبلاً. إن هيئته تجسد الأخبار السيئة بهذا الألم الدفين تحت جلده.

يسألهُ:

ـــ هل تعتقد أن عبدالله بن أبي سلول يصلح لإمارة..؟

تجهمَ وجهه أكثر:

ـــ يا أمير المؤمنين إن ثمة زوبعة عليك لأنك أطلقت عبيد الله بن عمر بعد ثلاثة أيام من جريمته والآن تريد أن تعين عبدالله والياً!

ـــ لي نظرة في هذه الأمور.. لماذا إذن صرتُ خليفة؟ ألكي أتبع ما فعله غيري؟

ـــ لكنك قلتَ يا أمير المؤمنين إنك سوف تتبع ما فعله الشيخان؟

ـــ نعم.. لقد طلب عمر أن لا أغير الولاة الذين اختارهم للولايات ولن أغيرهم لمدة سنة كما طلب، لكن هذه ولاية مصر تشكو عمرو بن العاص وإدارته فيها.. وأنا سوف أجعل عبدالله بن أبي سلول يشاركه الحكم فيها!

كاد مروان أن يترنح. تطلعَ فيه كأنه غير مصدق وهتف:

ـــ يا ابن عمي العزيز لا تزحزح عمرُ بن العاص هذا.. هذا قريبك وصاحب عقل يفتُّ الجبالَ.. كما أن الناسَ سوف تلهجُ أكثر بنقدك بعد أن قمتَ بهذه الأمور الجديدة التي لم يصدقوها وعدّوها بدعاً خطيرة!

فكرَ بتمعنٍ: هذه أمورٌ مهمة ولكنها ليست جسيمة ومع هذا ألقى في كل لحظة الاعتراض.. ماذا لو قمتُ بخطوات كبيرة؟! يريدون من عثمان أن يكون شيئاً أجوف يردد ما يقوله الآخرون، كأن هذه السنوات وأنت تسيرُ وراء الآخرين حولتك إلى ظل لا ذات فيك، إنهم لا يريدون الاعتراف بأنك صاحب شخصية مستقلة كبيرة كذلك!

نهض وقال:
ـــ لن أتسرع في شأن مصر وشأن عمرو بن العاص.. ولكن في شأن الكوفة لن أتردد، وسوف أعين سعداً بن أبي وقاص والياً عليها..
ـــ لكن واليها المغيرة بن شعبة موجودٌ هنا..!؟
ـــ تعرف المغيرة والظلال الغريبة التي أحاطت بعلاقته بالهرمزان المقتول.. وما فعل سابقاً في الكوفة من شبهات أخلاقية!
ـــ أنت يا أمير المؤمنين تقربُ الحطبَ من النار.. المغيرة هذا داهية ومشكلة وإذا عاديتهُ فسوف يثيرها عليك، وكذلك عمرو بن العاص..!
ـــ لا، عمرو بن العاص كما قلت لك سوف يتأخر أمره.. لكن لنكتف الآن بإصلاح الكوفة التي لا ينصلح أمرها أبداً لكن ربما على يدي يحدثُ ذلك..
هتفَ فجأة:
ـــ التسامحُ والصفحُ يخرقُ الجبالَ!
صمت مروان وصدره يغلي وأنفاسه لاهبة، فتطلع إليه بشفقة:
ـــ ماذا بك يا ابن عمي.. هذه سياستي وأنا مسؤول عنها ولا أخاف سوى رب العالمين!
ـــ ولكن يا أمير.. المغيرة هذا.. سوف ينشرُ النارَ في كل مكان، وعمرو بن العاص لا تستطيع..
وصمت..!
ـــ ماذا بك أكمل.. تقول إنه أذكى مني وإنه سوف يحرجني ويقلبُ الناس ضدي؟! ليكن، أنا بفعلي للخير سوف أتغلبُ على كل هؤلاء!
جاء عاملٌ وقال إن ثمة جمعاً يريد مقابلة الأمير..
قال مروان:
ـــ ها هم قد بدأوا..!
صاح عثمان:
ـــ أدخل الناس ولا تجعلهم يقفون على الباب!
دخل الحشدُ المتوقع المتوتر الأعصاب المتقلب الوجوه، من الطيب إلى الماكر، من الساذج إلى الذكي، من الخير إلى الشرير.. علي بن أبي طالب يتقدمهم فيندفع إليه محيياً، ويسلم على الآخرين بمودة، ويدعوهم للجلوس..
يقول علي باستياء:
ـــ لقد قلتَ بأنك سوف تعمل بسنة الشيخين وفي أول لحظة تحكم نقضت هذه السنة نقضاً شديداً وأطلقت عبيدالله بن عمر، وهذا القاتل يتجولُ الآن في المدينة حراً متباهياً بفعلتهِ..
وغمغم الآخرون مؤيدين. هذا عمار بن ياسر لا يقول عليٌ شيئاً حتى يبادر إلى ترديده!
قال:
ـــ يا إخوتي لقد وجدتُ نفسي في موقفٍ صعبٍ خطير، فالخليفة عمر قُتل بيد ذلك المجرم وربما بتآمر من أولئك الأشخاص، وعبيدالله أندفع، وقتل منهم من قتل.. وقطع علينا خطوط معرفة أولئك القتلة.. فلا أظن أن الأمر يقفُ عند حد أبي لؤلؤة ذاك المجرم.. بل الأمر يتخطاه كثيراً..
فمن هو الهرمزان هذا؟ هو قائد فارسي أثخن المسلمين بتمرده وخياناته.! هل يندم عليه أحدٌ؟
وصاح أحدهم:

ـــ ولكنه أسلم..!
قال بقوة:
ـــ وكان ينفثُ مثل الحية.. وكذلك وجدتُ نفسي إن عمر قد قُتل أمس فأروح أقتل ابنه اليوم؟!
قال علي:
ـــ ليس علينا انه عمر أو ابن غيره.. ونحن أمامنا قضية قتلٍ قامَ بها إنسانٌ ما، دون أن يتبين شيئاً من الحقائق عن الناس الذين أقتص منهم بسرعة وتهور، وهو لا يحق له القصاص أصلاً، وبهذا كله فهو مجرم شرعاً.. ولا ينبغي أن تتركهُ مطلق السراح!
صمت عثمان لحظة مفكراً، وهو يرى الحضور قد تطلعوا إليه بشيء من الريبة، فقال:
ـــ إن الأمور لا تُؤخذ بمثل هذا يا علي، فابن عمر هو ابن خليفتنا الراحل المهدور دمه، على كل تضحيته وبلائه وخدمته للمسلمين، وهؤلاء حفنة من المتآمرين الحاقدين لا نعرف لهم ذمة ولا أخلاقاً، فهل ننتقم من ابن عمر ونسيء لذكراه؟ وكذلك فإنني أُعتبر ولي الأمر وأعطاني الشرعُ إمكانية العفو والدية، فأعطيت ما بقي من أسرهم تعويضاً كبيراً، فسويت المسألة تماماً.. الصفح والتسامح أهم من الانتقام والقصاص!
قال عمار:
ـــ هل تريد أن تسوي كل شيء بالمال؟
أضاف علي:
ـــ لهم ذمة وهم متساوون هنا معنا في حقوق الحياة، فهدر دمهم مثل هدر دمنا، وأنت لم تنفذ القانون يا أمير المؤمنين بل نفذت أوامر القرابة فنقضتَ العدلَ!

الفصل الثاني

١

تأملَ أبو ذر الغفاري السماءَ الواسعة ذات الرمل المضيء، ودهشَ لسكونها المستمر وصمتها اللامبالي، فمهما حدث من أنواء وتقلبات بشرية ومهما تحكم الشرّ فهي في مكانها..
هذا هو الطريقُ للمدينة يعجُّ بالسكونِ والظلام، وهو وحدهُ يفترشُ رداءَهُ وينام، صديقهُ الأزلي هذا التراب، وحين شعّ الفجرُ كانت الصحراءُ ساكنةً رطبة كأنها صحن اخترقتهُ الأضواء.
صلّى وركبَ ناقتَهُ وانطلق.
كم اخترقَ هذه التلالَ والجبالَ والصحارى؟ منذ أن كان فتى وهو يبحثُ عن سر هذا الخلق، وكانت الأصنامُ منتشرةً في كلِّ مكان، والناسُ تقدسها وهو مذهولٌ من هذه الحجارةِ التي تبولُ عليها الكلابُ وتتدفقُ الدماءُ تحتها، وفكرَ بأنه لا ينبغي أن يعبدها، وراح يصلّي وحيداً في القفار لإلهٍ متوار، بيدهِ كل الأشياء..
في غفار، في تلك البقعة المجدبة، كان قومُهُ الفقراء، يرعون الماعزَ وبعضَ الإبل، ويغفون في حضنِ التلال وتحت النخيل. وانغمرَ مع قادةِ الإسلام في النهرِ المتدفقِ إيماناً وتضحية، وتحولت كلّ الصحراء إلى أختٍ للمدينة، تهبّ لنجدتها، وتلك تعطيها أكلاً إذا ضاقتْ بها السبلُ وعزّ المطر وادلهمّ الخطر!
وقد مات عمر الآن، لكن علياً لم يصبحْ خليفة، وهو اندفعَ من دمشق يحسبهُ أميراً للمؤمنين، لكن المارة الذين فاجأوه بالأخبار لم ييئسوه من القادم.
فكرهُ يضجّ بالأسئلةِ ؛ فكيف يصيرُ تاجرٌ كبيرٌ يعيشُ بين الخدم وفي بيتهِ المرفّهِ حاكماً لحشود الفقراء ولغابة البدو التي تملأ الصحارى؟ كيف يكون عثمان الذي لا يتذوق سوى اللحم بالمرق وأطاييب الطعام مدركاً لحاجة أولئك المشويين على تنكةِ الشمس والصحراءِ القاحلة على مدى النظر والنار؟
كان النبي وأبو بكر وعمر يعيشون معهم على نفسِ التراب والطعام والحلم وتصيبهم نفسُ الجراحِ والآلام، فكيف سيكون ذو الغنى قادراً على فهمهم والإحساس بهم؟!
هل يمكنُ أن يحدثَ ذلك؟ هل يمكن أن يتحولَ الأمويُّ الغني إلى عمر آخر؟ لكن ألم يكن عثمان معذباً مثلهم وهاجرَ وتحملَ الأذى وحفظ القرآنَ ورافقَ الرسولَ وتزوج ابنتين من بناته واحدة بعد رحيل الأخرى، ألم يكن بينهم حقاً؟! لماذا تظلمُ الرجلَ قبل أن تمرّ عليهِ سنة؟ ولعله يكون استمراراً لعمر، ولا تستطيع تلك البيوت الفارهة والمتاجر الحاشدة بألوانِ السلعِ أن تؤثرَ في ارتباطهِ بالفقراء مثلما قاوم تأثيرها وبذخها وهو مهاجرٌ ومعذبٌ؟
يتوقفُ في الظهيرة ويفتحُ زوادته ويأكلُ كسرة خبزٍ وتمرة ويشربُ رشفة من الماء، ثم يمضي..
ربما كان ينتمي إليهم، ربما كان موجة من نهر الفقراء المحمدي المتدفق لري الصحارى الجافة. ربما كان زهرة من هذه الزهراتِ التي تفتحتْ بالمطر السماوي.. لكن وجهَ معاوية بن أبي سفيان لم يكن ينبئ بهذا الحلم. حين زارهُ في بيته الصغير بالشام رآهُ على غير هدوئه، فقد صار شديدَ القلق، قال:
ـــ لقد اختار عمر ستة من الصحابة ليتم اختيار الخليفة منهم!
ـــ وأنت لم تهتمّ إلا بهذا والرجلُ تقطعت أمعاؤه..

ـــ .. إن ذهابه خسارة..
لم يلحظ أي أسى منه على عمر، وهو الذي بكى طويلاً، ولم يأكلْ هو وزوجته شيئاً.. بل كان معاوية شبهَ فرحٍ لرحيلِ عمر الفاجع. ألم يضبط عمر أموالاً كان أرسلها مع أبيه سفيان؟ ألم يدققْ في مالهِ وأشيائه حين جاء هنا؟
واستمر معاوية في الكلام:
ـــ لكن أمور المسلمين لا بد أن تتواصل، ولا بد أن يكون ثمة خليفة، وإن كنتُ لا أفضلُ أن يوصي بمجموعة من الأشخاص، وودتُ لو عينَ واحداً..
هذا الرجل يقذفُ بالشرارات دون أن تحرق شفتيه.
ـــ من كنت تريد أن يعين؟
ـــ عثمان بن عفان.. هل هناك أفضل من عثمان؟!
ـــ علي بن أبي طالب..
وكأن أفعى لدغته فصرخ:
ـــ لا.. لا!
والآن تحققَ حلمُك يا معاوية، فأين أحلامنا؟ كانت ثمة لحظة من الصفاء والغنى المشترك والصداقة العميقة في العهدِ الجميل السابق الوامض، لم يكن دماً ذاك الذي يُبذل ويروي الصحراء بل كان أشبه بنورٍ وهو يخرجُ من الجراحِ والأجساد الممزقة ويصنعُ حياة سامية.. أية سعادة غريبة في تلك المعاناة؟
آه يا أحبتي الراحلون الكبار.. كلّ كلمةٍ منكم كان تجمعُ حشداً وتبني أجساداً مشتتة وأرواحاً تالفة..
ها هي أزقة المدينة تفتحُ ذراعيها له، وها هي بيوتها تستقبلهُ بأسى، فليس ثمة تلك الوجوهُ المستبشرة الفرحة، ولا الأذرع المفتوحة الحانية؟!

الخيولُ تتدفقُ باتجاه الغرب. خطٌ طويلٌ من الأجساد البراقة تندفعُ بين طرقاتِ الجبال وشوارعِ القرى الملتفة بالشجر والثمر.
معاوية بن أبي سفيان على رأس السرب الذي يثيرُ الغبارَ والأخبارَ والأصداء. عيونهُ تحدقُ بخطوطِ البساتين وثلل الرجال التي تصطفُّ على الطرق وتهتف:
ـــ سيدي خذونا معكم!
القرى تزهرُ شباباً غضاً يتوق للعيش الرغد والمغامرات، وهو في لحظات الظهيرة المشتعلة يوقفُ الركبَ، ويريحهُ في ظلالِ الشجر ومظلات القماش ويأمر بفرش سفر الطعام.
ينظر للشباب الحاشد حوله، يسألُ:
ـــ ماذا تشتغلون؟ لماذ لستم في الحقول؟
ـــ الزرعُ صعبٌ، والأجرُ ضئيلٌ، والقرى مملة!
ـــ وتتوقون للسير معي نحو البحر وركوب السفن واجتياح المتوسط؟!
تفجرتْ صيحاتهم:
ـــ نعم! نعم!
السّفرُ الكبرى والصحون الواسعة الملأى بالثريد، والخضرة والفواكه، والحشودُ من الجنود التي تأكلُ معاً، وهو على رأس المائدة، لكن كتفيه تزاحم أكتاف الرجال الصلدة، وأصابعهُ تغوصُ في الخبز الرطب التعب وتنتشلُ كرات اللحم، وتجمعها في لقمةٍ كبيرة معصورة، نحو الفم، والرجالُ لا تكفُّ أيديهم عن التوغلِ في أهرامِ الخبز المتداعية، وبين لحظة وأخرى يقولُ أحدٌ شيئاً.
الركبُ يزدادُ ويتسعُ وتنضمُّ خيولٌ جديدة، يشتريها معاوية من باعة ومن فلاحين معوزين، وينزلُ الحشدُ الطويل نحو المدينة الساحلية، التي تفتحُ شوارعَها لذلك السيل المسلح.
ينغمرُ معاوية بالصنّاع، المندفعين في تجميع ذلك الخشب المتفرق بالمسامير، والذي يُسحج ويتنعم ويضيء بأيديهم، لكن ثمة وقت طويل لكي تجهز هذه السفن، ووقت أطول لكي تمتلئ بالجنود وتمضي على ذلك الماء الأزرق الخطر العاصف المجنون..
يمضي لمنازلِ الجند، ويدخلُ عنابرَهم، وينظرُ إلى أسرتهم ويسألهم عن طعامهم، فيقولون بأن ليس ثمة أطعم ولا أشهى من طعام الطريق الذي كان وإياه..
يستقبلُ والي المنطقة في بيته.الرجلُ تقدم بدهشة وحذر:
ـــ أهلاً..
ـــ أهلاً بأخي معاوية.. كيف قمتَ بهذا يا رجل؟ رحتَ تنشىء أسطولاً دون موافقة الخليفة؟!
انزعج معاوية من الطريقةِ الجافةِ في الكلام النابعة من مساواة مفروضة بقوةٍ غريبةٍ متوارية.
لكنه كتم ضيقه وابتسم:
ـــ بل يا أخي كاتبتُ أمير المؤمنين وقلتُ له علينا بغزو البحر..
ـــ أنت تعرف أن عمر كان يكره ذلك وطالما كاتبته وهو يرفض..
ـــ هذا بسبب ما كتبه أخونا عمرو بن العاص عن البحر إلى عمر: (إني رأيتُ خلقاً كبيراً يركبه خلقٌ صغير ليس إلا السماء والماء. إن ركدَ خرقَ القلوبَ وإن تحرك أزاغَ العقولَ. يزاد فيه

اليقين قلة. والشك كثرة. وهم كدودٍ على عود إن مال غرق وإن اعتدل برق)، فهذه العبارة تخوفُ المسافرين والمحاربين!
ـــ إذن حتى الآن لم يوافق عثمان على ذلك ولكنك أسرعت إلى التنفيذ!
ـــ سوف يوافق إن شاء الله، فعثمان نشط ومفتوح الصدر للأشياء الجديدة، وانظرْ الآن كيف غادرَ أغلبُ الصحابة الحجاز يسعون في مناكب الأرض رزقاً وتعليماً، وكيف راحوا يبنون البيوتَ الكبيرة ويشترون الضياع..
سلمَ الوالي كيسَ نقودٍ ممتلئاً وأعطى معاوية قلماً ليوقع، لكنه تناول الكيس ووضعه في جيبه. قال:
ـــ منذ الآن ليس ثمة داعٍ لكل هذه الحسابات..

٣

كان أبو ذر مضطرباً وهو يتنقّل في بقاعِ المدينة.
أهذه هي المدينة التي يعرفها مدينة الرسول وعمر؟ أهذه المدينة التي كان الناسُ فيها عائلة واحدة، يتبادلون الكلمات والقمحَ والثياب؟ لماذا لم يعد يرى الجموعَ إلا وهي مشغولة ببناءِ بيتٍ كبير أو شراءِ ضيعة، أو بستان في العراق..؟
حين حاول أن يرى طلحة بن عبيدالله لم يجده وقيل إنه ذهب للكوفة حيث أعطاه عثمان ضيعة كبيرة هناك! أما سعد بن أبي وقاص فهو يبني قصراً في العقيق بعد أن تشاجر مع عبدالله بن مسعود على مالٍ في الكوفة!
ألقى بنفسه عند علي بن أبي طالب، حيث ثلته الحبيبة، تساءل مذعوراً:
ـــ ماذا جرى؟ لماذا لم يعد الصحابة موجودين إلا في صفقة أو بين عمارة تُبنى وتتطاول إلى السماء أو في سوق يشترون العبيد والجواري؟!
قال علي بهدوءٍ:
ـــ إذا كانت الصفقات والأبنية بالحلال فلا اعتراض.. لا تستطيع أن تتكلم على أحد إلا إذا كانت هناك شبهة ما وأدلة عليها..!
ـــ إنني لا أتكلم على الحلال والحرام هنا، بل أتكلم على البناء الذي شيّده النبي وبعده أبو بكر ثم ارتفع على يد عمر، بناء الألفة والأخوة والمساعدة لحشود الفقراء، والآن لا أحد إلا وهو مهتمٌ بنفسهِ، وبمتاجرهِ وبضائعهِ وعبيده، والجموع من المشردين واليتامى تتدفقُ على المدنِ مقلوعة من بواديها وأريافها..!؟
قال عمار بن ياسر:
ـــ أتعرف خازن بيت المال ذلك الرجل الأمين الشيخ؟ رآه عثمان يبكي عنده فقال له لماذا تبكي؟ فقال ها هو ابنك يأخذ أموالاً من بيت المال ما يشاء وكان عمر قد ضرب ولده لأنه مد يده على دينار واحد.. والآن ترك الخازن الشيخ العمل، فقالت جماعة عثمان إنه تركه بسبب شيخوخته!
قال أبو ذر:
ـــ لقد حيرتني هذه الأمور وتعبتُ منها فذهبت إلى أمير المؤمنين نفسه وسألته عن هذه الأموال التي يصرفها على أهله ومعارفه.. أهي من بيت مال المسلمين فقال نعم، فذهلت.. وقال لي بهدوء وثقة عجيبة (إنه الخليفة ويحقّ له توزيع المال على من يرى حاجته وعلى أهله.. فإذا كان لا يساعد عشيرته الأقربين فمن يساعد؟)، وإذا حاصرتهُ بالأسئلة قال إن بعضها من أمواله الخاصة، وإنه يعيش على نفقته لا على بيت المال، فضاعت المقاييسُ وتاهت نقودُ الناس!
كان علي يفكرُ بعمق. وحدث صمتٌ حزين. قال علي:
ـــ أعتقد أن هذا الضعف الذي يتصفُ به عثمان سيودي بنا إلى الهلاك. صارت قمة الدولة حائرة ومضطربة وأخشى أن أقول فاسدة، وسوف يسري كلّ ذلك إلى كلّ مكان، وليس في يدنا شيءٌ نعملهُ سوى النصيحة التي يراها دسيسة وتشكيكاً وشغباً!
صاح أبو ذر:

ـــ دعوني لها!
مسجدُ الرسول هو نفس المسجد الذي تركه عليه الصلاة والسلام ولكنه توسع. وهو لا مكان له سوى في زوياه وبين جدرانه، ومع هؤلاء الفقراء الذين لا سقوف تظللهم ولا أسرة تؤويهم..
أيذكرُ كيف جاء إلى هنا وهذا المسجد كان صغيراً محدوداً وكان بيتهُ حتى ساعده الصحابة بتأجير بيت وبتزويجه فاستقر على الزهد والصلاة والجهاد! كم أكلتْ من جسمهِ الصحارى وما سمنتهُ المدنُ.. ثم قال له عمر: اذهبْ إلى الشام وجاهدْ بمراقبة الحكام!
والآن وهذا الجمعُ الحاشدُ ينتظرُ خطبته فليسمع الناس هنا كلماته:
ـــ ماذا فعل بكم عثمان بن عفان وجماعته المحتكرون لبيت المال وكأنه بيت مالهم الخاص؟ كيف احتشدتم في هذه المنازل الصغيرة الضيقة وهم يبنون القصور؟ هم يكنزون القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والدنانير وأنتم لا تجدون العشاء لأسركم؟ أهذا ما جاهد المسلمون من أجله؟ أهذه هي نتيجة الدماء التي سالت والحروب التي خيضت والشهداء الذين كانوا بعدد الرمل؟
لا شك أنكم تعرفون ما يقول القرآن في من يكنزون الذهب والفضة، وتعرفون كيف تُكوى جباههم!
فزعَ بعضُ الحضور، فيما راحت تتدفقُ جموعٌ كثيفة من الناس.
استدعاه عثمان بصرامة وقال:
ـــ يا أخي أبا ذر هل تريدُ أن نقومَ بمصادرةِ أموالِ التجار التي كسبوها بالحلال .. وحتى لو وصل ذهبُهم مبلغَ الجبال ما دخلنا نحن؟ هم يتصدقون، هم يزكّون.. فما لك عليهم من مدخل سوى مدخل الحسد!
ـــ ألم يكن المسلمون جسداً واحداً إذا اشتكى عضوٌ منه تداعت له سائرُ الأعضاءِ بالسهرِ والحمى؟ إذا لماذاً يتركون أخوتهم في مثل هذا الفقر والجوع؟ هذا بالمدينة هنا حيث الشبع والغنى فماذا لو سرت وتركت هذه الدار التي أنت فيها ونظرتَ إلى أهل البادية والقرى كيف يعيشون.. حين تأتيهم الأمطارُ يغرقون في الوحل وفي المجاعات لا أحد يسأل عنهم..
ـــ أحضرْ أسماءهم.. عيّنْ مواقعهم وأنا أملأ دورهم بالأكل والنقود.. هذه دارُ المال تفيض..
ـــ كان عمر مقيداً لأسمائهم وأمكنتهم ولديه ولاة ومراقبون في كل مكان وحين جئتَ أنت خمدتْ هذه السياسة!
ـــ إذا كان ثمة فقراء في المدينة والحجاز كما تقول فأحضرهم لي وأنا كفيل بهم.. أما أن تشتم أصحاب الثروات لأن لديهم أموالاً فهذا ما لا أسمح لك به!
ـــ ولكنها آياتٌ من القرآن أقرأها عن الاكتناز وعذاباته فهل ستزيل هذه الآيات من القرآن؟
ـــ لا أزيلها ولكن جاءت آيات الزكاة ونسختها.. هؤلاء الناس المكتنزون مسلمون ويزكّون عن أموالهم ويوسعون المزارعَ ويشغلون الناسَ.. وهناك أناسٌ فقراء عملهُم محدودٌ.. وحين تقرأ آيات الاكتناز دون أن تشرح الناسخ والمنسوخ تكون محرضاً على الفتنة!
ـــ لكن النسخ لم يجيء عن تضييع أموال الناس وإعطائها للأقرباء!
ـــ إذا نبستَ بحرفٍ من هذا أعدتك لدارك في الشام وتحت عيون معاوية!

يجلس عثمان على كرسيه وأمامه طاولة الطعام الواسعة، وزوجته جالسة قربه، وبضعة أبناء منتشرين قربهما، والخادمات حولهم يسارعن بالأكل والشراب ويملأن الأطباق بها.
هو يتذوق أشياء خاطفة من الأطباق، ويقرب طبقاً كبيراً به لحم ومرق وخضر. يقول:
ـــ ذوقي يا أم عمرو من هذا الطبق.. إنه فارسي لذيذ! هيا يا أولادي عليكم بهذا اللحم الطيب!
ـــ لا أحب التخمة يا رجل.. يكفي بضع لقمات وقد صرتُ ممتلئة..
ـــ انظري إلي أنا آكل ولا أتخم.. خذي عصارة الطعام يا امرأة..
ـــ لو أن أمثال أبي ذر رأوك الآن..؟
توقف عن المضغ وقال بسخرية:
ـــ ماذا يفهم هؤلاء من الدين؟ يعتقدون أن الدين هو الزهد والفقر والجوع! وهو أمرٌ ليس صحيحاً بل هو السعادة في الحياة والآخرة. فلماذا أجوّعُ نفسي وأنا رجلٌ مقتدر؟!
نهضَ من على الطاولة، وانحنى وجاءت خادمة وراحت تصبّ عليه الماء، ثم تناوله منشفة، وقامت زوجته وأبناؤه وتبعوه إلى دار الجلوس، حيث جثمت أطباق الفاكهة.
قال:
ـــ إن أمثال علي وأبي ذر والمقداد وعمار لا يكفّون عن نقدي والتعريض بي، إما لأكلٍ طيبٍ أتمتعُ به، وأما لأقرباء أجعلهم ولاة.. وهم يكرهون معاوية خاصة لأنه تفوق عليهم.. ونحنُ كلانا الآن نفكرُ بالغزو في البحر وخاصة مع تهديدات الروم المستمرة.. لكن هؤلاء الناس الناقدين يدهشون من هذه التغييرات ويريدون الأمور تجري كالسابق، إنهم يخافون التغيير، ولا يحبون سوى الزهد مع أن الأموال تتدفقُ علينا من كلِّ حدبٍ وصوب..
قال ابنه عمرو:
ـــ يا أبي هناك أناس يحبونك وهناك أناس ينتقدونك.. هذه طبيعة البشر، أناسٌ ترضى وأناس تتذمر..
قال عثمان:
ـــ أنا لم أخلق فقرهم ولا غناهم.. لكن التجار والأغنياء يتحركون ويشتغلون ويسافرون ويبيعون، وآخرون يحرثون ويرفعون الأكياس ويغوصون في التراب.. فتتباين أوضاعهم وتتعدد دخولهم.. هذه الحياة كانت في زمن السابقين وفي زمني، ولكن الآن تفجرت الثروات واندفع التجار الأغنياء يشترون ويبيعون في كل مكان، إنه خيرٌ فعلى الجميع أن يشتغل بقوة وحرية!
قال خالد:
ـــ صدقت يا أبي، لو أن كل الناس تفكر مثلك لما تدفقت ألسنة بعضهم بالنقد..
قال عثمان:
ـــ لكن التطاول على بيت المال شيء سيئ، هذا أخونا سعد بن أبي وقاص وهو معروف بجهاده العظيم اختلف مع مسؤول بيت المال في الكوفة عبدالله بن مسعود الذي طالب سعداً برد بعض المال الذي أخذه وسعد أنكر.. وتصارع الرجلان، الصحابيان الجليلان.. فاضطررت إلى إعادة سعد إلى المدينة.. فهل أذهب إليه وأحاكمه وأصارعه وأقول أين خبأت تلك الدنانير، ونحن لدينا

الملايين منها.. والله إنني لأخجل أن أذهب لهذا الصاحبي الكبير وأنظر إلى عينيه وأقول هات ما أخذته من بيت المال..!

يقول عمرو:

ـــ لكن يا أبي هذا ما يفعله عمر ولا تثريب عليك إن ذهبت إليه وطالبته!

هتف عثمان:

ـــ حشودٌ من الأموال تأتي إلينا وجبال من الذهب والفضة تتكدسُ في خزائننا.. ثم نطالب سعداً ببضعة دنانير؟

قالت زوجته:

ـــ لكن إن تراخيت مع الولاة هكذا لطمعَ كلُّ واحدٍ منهم بمالِ الناس وجمعَ حولهُ الأتباعَ ونسي واجبه!

ـــ إنني لا أستطيع أن أكون مثل عمر وأتجسس على الولاة وأدقق في كل دينار.. فالولاة يحتاجون لأموال كثيرة، لبناء دور ضخمة للحكم، تجعل ممثلي الدول الأخرى الزائرة تهاب الدولة الإسلامية.. يحتاج الولاة إلى شرطة وقلاع وسجون وأسطول بحري، بل أساطيل بحرية.. وإذا رحتُ أدقق في كلِّ درهم تجمدت الدولة، وهي لها مطالب كثيرة هائلة..!

سألتْ زوجتهُ:

ـــ ومن ستعيّن في الكوفة بدلاً من سعد؟

ـــ سوف أبعثُ.. الوليدَ بن عقبة..

ـــ هو شابٌ صغير توليه؟

ـــ كان في مجلسي وذكرني وقال لي إنني فضلتُ أناساً من أهلي على آخرين، وقد رأيتُ فيه ذكاءً لم أجده عند فتية بني أمية فقلتُ له ولّيتك الكوفة!

في هدأة الفجر ينهضُ معاوية من سريرهِ ويغتسلُ ويتوضأ ويمضي إلى المسجد.
هدوءُ المدينةِ جميلٌ، وبردُها فظيعٌ، ومهما تلحّف فإن جليدها يصلُ إلى العظام.
الجندُ في أمكنتهم، يقظون، يظهرُ لهم فجأة فيرى انتباههم، يدققُ في ملامحهم ويناديهم بأسمائهم، ويدخلُ المسجدَ فيرى الناسَ ينتظرونه، فيحييهم، ويؤم الصلاة، ويركعُ ويسجدُ ويقف ويقرأ القرآن بهدوء ودقة وصوتٍ مهيب، ثم يعودُ إلى داره، فيتصدرُ في مجلسه، ويأمرُ بالفطور، ويندفعُ الحشدُ معه آكلاً ومتحدثاً بما يشاءُ، وحين يشبعُ الجمعُ ويهدأ، يطلبُ دخولَ الناسِ عليه بقضاياهم ومشاكلِهم، فتبدأ ملامحُ المدينةِ والأحياءِ والقرى البشعة في الظهور، فهذا أخٌ مسروق من أخيه، ولا يملكُ شهوداً، وأخوه يقولُ بأنهُ لم يتسلمْ شيئاً وإن ذلك كلهُ ادعاءٌ باطل! وينصت للأخوين ويتمعنُ في وجهيهما ويدركُ من معاناةِ وجهِ الأخ وعظامه البارزة الناتئة ومن تعبهِ ولمعةِ عينيه المتفجرة حزناً ولوعة، بأنه صادق، فيسأله أين يعمل فيقول بأنه الآن بلا عمل، بعد أن تشاجر مع أخيه الذي طرده من الحقل، فيأمر له بقطعة أرض يعملُ فيها حتى يسدد ثمنها، ويقول إنه إذا أحضر شهوداً على أخيه فهو يستطيع أن يفعل شيئاً له في قضيته، ينشرحُ وجه الرجل ويحمد الله ويشكر الوالي..
ويصرخ صاحبُ القضية التالية على المستأجرين الذين توقفوا عن الإيجار ويطالبُ الوالي والقاضي بأن يجبرهم على دفع الإيجارات الكثيرة المتأخرة، ويحضر المستأجرون فيرى هياكل عظمية تجرّ بعضَها إلى القاعة، إنهم حرفيون وباعة صغار عجزوا عن السداد، فيسألهم عن أعمالهم وينحشرُ بين الجدرانِ والأدواتِ والدخانِ والعرقِ والدراهمِ الصغيرة التي لا تظهرُ من الجيوبِ المثقوبة بألفِ ثقبٍ، فيأمر لهم بمساعداتٍ لتحسين دكاكينهم، ويحددُ لهم زمناً لدفع الإيجارات فيرضون..
تتالى القضايا وتتكشفُ حرائق في أكواخٍ، وسكاكين تنغرز في بطون، وفلاحون يهربون من البساتين وعملات زائفة يصنعها عدو غامض وتتدفق من وراء الحدود، وعبيد هاربون وبضع نساء باكيات من قسوة أزواجهن..
يصغي بعمقٍ ويرهفُ السمعَ لأي نأمةٍ وتنسدّ بعضُ القضايا في وجههِ، فيؤجلُ أو يصغي لمستشاريه من القضاة ورجال الدين والفتوى، ويتصارعُ الخصومُ بشدة وتسيل الدماءُ والدموع وتتوارى النقودُ في الجدران والتراب، وهو يصغي ويبحثُ ويطلقُ رجالَ الشرطة بحثاً في البساتين والبيوت والصدور..
ينقطعُ لصلاة الظهر..
ويحين موعدُ الغداءِ فتمتدُ الأسمطة وتوضعُ الصحونُ الكبيرة وتتجمعُ الحشودُ حولها ويأكلُ مع الناس قليلاً، ثم يذهبُ لدارهِ ويستريح بعض الوقت، ثم يعود للمجلس، مستكملاً الأصغاء إلى خرير الدموع والدماء، رائياً الحارات والأزقة والقرى وهي تنزفُ وتتعاركُ على الدراهم، متذكراً القصرَ الذي يبنيه وبطءَ العملِ فيه، مطلقاً كلماتهِ التي تهدئ الجراحَ وتوقفُ النزيفَ قليلاً، معيداً الوجوهَ اليابسة والصدورَ الضيقة إلى أزقتها وهي لديها كلمة أملٍ وقطعةٍ من النقد والخبز..
يمضي لصلاة العصر..

في الحشدِ المسائي يلتقي بوجوهٍ مختلفةٍ؛ لحى كثة وصدورٌ عريضة وكلماتٌ عربية فصحى مجلجلة، وأحكامٌ شتى، وآراء متصادمة عن القضايا، وأشعار وأخبارٌ عما يحدثُ في المدينةِ والإمارة..

يقولُ أحدُ الشيوخ:

ـــ لقد عاد أبو ذر من المدينة أكثر غضباً وتحريضاً.. ليس لديه سوى الناس الكانزين للذهب والفضة، وعلية القوم الذين يسرقون المسلمين ويجمعون الأموالَ في خزائنهم.. إنه لسانٌ سليط حادّ يحشدُ الناس ويطلقهم عواصف مرعدة في الحارات!

يقول أديبٌ:

ـــ وقد اتخذ من بناء قصرك يا أمير مادةً لهجائك ويقول لماذا لم يبنَ مثل هذا البناء في عهد عمر؟! ويضيفُ بأن عهدَ عثمان أطلقَ أيدي طغاة المال والسياسة ينهبون ويلعبون كيفما اتفق!

يتحدث فقيهٌ قائلاً:

ـــ جاءه هذا اليماني اليهودي عبدالله بن سبأ وراح يجتمعُ بهِ ويتحادثان طويلاً!

تحدقُ العيونُ فيه فيقول بهدوء:

ـــ والله إنني لم أبنِ هذا القصر إلا للحكم، بدلاً من هذا البيت القديم.. وحين يعزلني الخليفة يعود هذا البناء للحاكم الجديد..

يفكرُ في نفسه: (والله لقد جاءني الحكمُ الذي لم أنتظره بهذا الشكل.. إن دابته تقتربُ مني لأمتطيها وكأنها تسعى لي دون غيري!..).

ويضيفُ:

ـــ أي كنوز نكنزها؟ إننا نوزعُ المالَ على كلّ محتاجٍ، ونبني أسطولاً، ونحمي الحدودَ، ونرحّل أموالاً كثيرة للخليفة..

قال الفقيهُ:

ـــ لا بد لك يا أمير من أن تشغل هذا الغفاري بغزوة ما، أو تسد فمه بكيسٍ كبيرٍ من الدراهم!

وأضافَ آخر:

ـــ أنت تستعد لغزو قبرص فأبعثهُ إلى هناك يُشغلُ بالجهاد!

ويعود لليلهِ العميق الجميل، ويجدُ في القراطيس والجلودِ والكتابات وحكاياتِ الملوك متعتهُ، فيقرأ وهو يحدقُ في خيالاتِ الجيوش والقصور والفاتحين الذين خرجوا من جزر صغيرة أو من كهوف وغزوا وانتشروا جيوشاً عظيمة في الشرق..

نام تعباً حتى استيقظ مع الفجر..

في غمرة هذا الليل الغريب، في طوفانِ هذه الأشياء المتحولة، لن يجد مالك الأشتر النخعي ملاذاً هادئاً. بعدما رأى عظماء الأمة يتشاجرون على بضع نقود.. هل يعودُ للشام وحروب معاوية؟ ما يحدثُ هناك أشياء محزنة. لم يعد لمعاوية من أصدقاء سوى كبار الأغنياء، فهل ينضمّ للحاشية أم يعود للعراق ويتحسس نبضاً جديداً. فهنا بذور لشيءٍ مختلف. هنا يبحث المسلمون عن عدل! بيوتٌ صغيرة تغوصُ في التراب، وبعدها تتمطى الصحراء حتى المدينة. نخيلٌ كثيفٌ يتراءى في الجهةِ الأخرى. من هنا جاء الرعيانُ بجحافلهم ليسكنوا ويبحثوا عن لقمة شريفة، وكرامة بدون سياط تلسع ظهورهم!

يا سيدي يا رسول الله، يا علي أيها الوهج، أعيناني على كفاحي!

سعد بن أبي وقاص لم يدفع ما أخذه من بيت المال وعبدالله بن مسعود يطالبه بقوة، وتشاجرا، وطلحة بن عبيدالله يملك أكبر بستان في السواد! ثم جاء والٍ غريب، شابّ أموي لطيف في مدينة الغضب والأسئلة!

ثمة خللٌ مخيفٌ في مكانٍ ما، وهذا الخليفة ترك كبارَ الصحابة والمجاهدين لكي يضعَ هذا الرجلَ والياً على العباد؟!

يدقّ باباً فيظهرُ صعصعة فيسيران معاً في الدروب، يقول:

ـــ دعنا نذهب لمجلس هذا الوالي فنرى ونسمع العجب..

ـــ من كان يتصور أن سعد بن أبي وقاص فاتح العراق يعود للحجاز ويعتزل!

ـــ ها هو قد بنى بيته الكبير كما يقولون..

ـــ كنا نخافُ الحرامَ وأخذَ بضعة دراهم والآن الكثيرون يندفعون للجواهر والجواري، يا رب أنقذنا..!

يجلسان على الرمال ويطالعان هذه الحشود من الكتل المتباينة بتضاريس تختلفُ عن الأمس. تلالٌ رملية مضيئة. إنها الليلة أشبه بسفينةٍ كبيرة، والقمرُ مصباحٌ كبيرٌ معلقٌ قرب صاريها..

سأل صعصعة:

ـــ لماذا لا نعود للجهاد ونتركُ هذه المدينة وحكايات الولاة والسرقات والمجون..؟

ـــ وكيف تترك زوجتك وهي حامل وهؤلاء ثلة من أطفالك ينتظرون أن تجد خبزاً؟!

ـــ في الجهاد مورد، وسفر وخطر ومفاجآت لا تخطرُ على بال.. وهذا الوالي الجديد يفتحُ سبلَ الجهاد الواسعة!

ـــ بل الجهاد هنا.. يخيلُ إليّ أننا سنرى أياماً عصيبة مع هذا الخليفة.. هيا قم نذهب لمجلس الوالي هذا هو موعده!

يهمسُ صعصعة:

ـــ كنتَ تنتظر في الحكم حبيبك الإمام علي.. فخاب ظنك..

ـــ من يمكن أن يكون مثله.. دع عنك حتى سنوات الجهاد الأولى والغزوات والبلاء الشديد فيها.. لكن طالع كيف عاش قارئاً مطلعاً، وهو البحر من العلم.. والدراية الكبيرة بالفقه واللغة والبيان ومع هذا.. لا يحوز على تقدير التجار الكبار في مجلس الشورى!

ـــ إنهم غدوا يداولونها بين أنفسهم.. لقد هربتْ من صاحبك إلى الأبد!
ـــ الوالي الجديد الشاب الوليد الذي نحسبه غراً فاجأنا بأريحيته، فبابه مفتوح دائماً والموائد عامرة للفقراء وللناس، ثم أنطلق للجهاد بكتائب لا تعرف الخوف وتغلغل في بلاد فارس وفتح وجاء بالغنائم ووزع على المحتاجين، فهذا شيء يبعثُ على الحيرة، فكأن عثمان اختار شخصاً مناسباً تماماً للخاصة والعوام هنا؟!
ـــ عثمان رجلٌ حصيف وإن بدت قراراته لنا غريبة!
ـــ لكنه ليس القائد الذي نريده.
ـــ بل يخيل إلي أنه هو القائد الذي نريده، إنه يجمع الكل، ويساعد الأغنياء والفقراء معاً!
نهض الأشتر بحنق، يشعر بأن صديقه متعب، فكم حاوره وتعب من زياراته وحواراته لكنه يظهر بشيء مختلف أبداً، قال بصوت متوتر:
ـــ جماعة قريش يا صعصعة يريدون في كل الأحوال أن يركبوا فوق ظهورنا، ولم يعز الإسلام بدون سيوفنا وهم يخدعوننا ويعتلون!
ـــ لقد ذهبنا مراراً إلى مجلسه ووجدناه دائماً حفياً بنا!
ـــ أشم رائحة خمر في الجو دائماً!
ـــ لماذا أنت بهذه الحدة والعنف..؟!
ـــ لأنك دائماً تجد الأعذار لهؤلاء!
مشيا إلى دار الولاية فسمعا ضجة. جمعٌ غفير في المجلس والوالي ضائع بين الحضور الكثيف، وثمة شاعر ينشد. يصعد الشاعرُ بين الأنوارِ والقاماتِ، فتعلو سيوفُ قريش، والقبائلُ نائمة في قيعانها وخيامها، وتظهرُ الوجوه المتألقة المشرقة من الحجاز، وتمتلئ أيديها بذهب الدنيا توزعه ويصير بساتين وقصوراً..
تذمر الأشتر، وصرخ بالشاعر الفاجر، ورأوا قصيدته السكرى ورائحته الحادة!
في الفجر كان الوالي الوليد يصلي بهم، وزاد الركعات وتحدث في أثناء الصلاة!

لا يستطيع أن ينامَ وهو يسمعُ صيحات الألم. ينهضُ من فراشه فتتحركُ زوجتهُ فزعة:
ـــ ماذا تفعل يا أبا ذر.. تنهضُ في مثل هذه الساعة، ليس سوى الليل الحالك والحراس يحصون أنفاسَ الناس؟!
ـــ نامي أنتِ، ليس بي رغبة في النوم..
ـــ هو من الجوع.. مضى يومان لم تأكل فيهما سوى بضع تمراتٍ وكسراتٍ من الخبز وكلما جاءك فقيرٌ أعطيتهُ الدراهمَ التي أعطاك إياها معاوية..
ـــ هل يمكن أن أعيش على مثل هذا المال المسروق؟!
ولبس خفّهُ ووضعَ خرقة على كتفيه ومضى نحو الباب، مشت إليه:
ـــ ألا تنتظر الفجر لتصلي، ليلُ المدينةِ شديدُ البرد!
ـــ كيف يتدفأ الناس إذن؟!
خرجَ إلى الزقاق، وكان يسمعُ بكاءَ الأطفال مثل خرير نهرٍ بعيد، لكنه الآن ضجيجٌ في أذنيه، وهمس (لو كان عمر هنا! كان يشعرُ ببكاءِ الصغار وهو في فراشهِ البعيد!)، واقتربَ من الجدرانِ المهترئةِ، والأخشابِ المتصدعة، وأبصرَ كتلَ الأطفال في خرقها والأبَ والأم نائمين، والصياح لا يوقظهما، ثم تمتدُّ يدُ الأمِّ لتربتَ رأس طفل وتسحبُ آخر نحو صدرها، لكن البكاء مستمر..
سيوفُ الشتاءِ تتوغلُ بين الحطب والحجر. والأزقة تتحولُ إلى بركٍ موحلةٍ. وثمة أناس خرجوا من بيوتهم المهدمة وراحوا يتعاونون على إيقافها وتقوية سقوفها.
لم يستطعْ أن ينامَ وراح يفكر: لو كان عليّ يحكم الآن هل كان هذا ليحدث؟ وهل سيبقى معاوية وأمثاله ويتكاثرون في الزمن التالي؟! أي خرابٍ سيأتي؟! الدنيا تفلتُ من أيدي الناس، وهذه الأجسامُ الغريبة تتكاثرُ على جروحِهم وحقولِهم وتمتصّ لتبني بيوتاً واسعة لاحاجة لها فيها؟ وتمتلك بساتينَ وأهرامات من الفواكه لا تأكلها كلها، بل تتعفنُ في مطابخها ومخازنها، وهؤلاء أطفالٌ لم يروا بقرة قط، لا بد من حاكمٍ يظهرُ من بين صفوفِهم..
يا أباذر..! إلى متى تهذي؟ لا بد لها من عملٍ قوي شجاعٍ يجذبُ كلّ هؤلاء المساكين! لا، لا، ستكون هي الفوضى والخراب. لا بد من النصح. أي نصحٍ يفيدُ مع العقارب والأفاعي؟! هل تريد أن تستبدلَ سمومَها لتقدم لك زبدة وقشدة في الصباح؟!
ويأتي الفجرُ وتكون الصلاة صعبة بين الوحول والأزقة الحاشدة بالفقراء المندفعين للحطب والأحجار، وترتفعُ أسعارُها فجأة، وتريدُ أن تؤمّ المصلين فتجدُ شيخاً سبقك، وبعد الصلاة راح يحدثهم عن ضرورةِ احتمالِ المصائب، وأحاط بك رجالٌ غلاظ شداد، ورحت تمشي مخفوراً بهم، كنتَ تعدّ خطبة نارية فلم يستطعْ لسانُك أن يظهر، وجوعُك صار يأكلُ أحشاءك، وسرتَ نحو احتفالِ معاوية بإنجاز قصره..
حشدٌ من عليةِ القوم، أمراءٌ وقوادٌ وقضاة وفقهاء وشعراء، وتدهشُ كيف ظهروا بهذه الكثرة فجأة؟! خيولُهم تحتاجُ إلى إسطبل كامل، وحراسهم أحاطوهم عن (الغوغاء)، وتدفق شعراءٌ بكذبٍ يمدحون الباني وأصله الفذ، والحجارة التي جاءت من الجبال، والخشب الذي استورد من

مصر والهند، ثم خطب معاوية معتذراً مشيراً إلى أن البناء للخلافة لا له، وأنه لكل الناس، ومفتوح لشكاواهم ودموعهم وصراخهم، وحراسه ليسوا غلاظاً شداداً، بل رفقاء راحمين بكل عجوز وشيخ ضرير..

ولم يتركهم يكذبون على الناس فنهض وصاح:

ـــ يا معاوية! إن الناس في هذه المدينة تصرخُ من الجوعِ والبردِ وتساقطِ أبنيتها الهشة الضعيفة وأنت تبني قصراً هائلاً.. انظرْ إلى هذه القاعة الكبيرة والنوافذ الواسعة الزجاجية والثريات المعلقة والسجاجيد الأعجمية الغالية.. من أين جلبت كلّ هذا؟

وغمغم علية القوم، وشاغبوه:

ـــ ألا تكفّ لسانك عن الأمير يا هذا؟

لكنه واصل الكلام:

ـــ لم يكد جسد عمر بن الخطاب رضي اللهُ عنه يبلى حتى سارعتم إلى التهامِ أعضاء الناس الحية، وبنيتم القصور والدورَ الكبيرة، ألا تخاف الله يا معاوية؟!

واشتدّ صراخُ البعض، لكن معاوية قال بهدوء:

ـــ أتركوه يا إخوتي يعبرُ بما يريد، فهي أسئلة مشروعة، لكن ليعلم أننا لا نبني لنا، بل للناس جميعاً، ونبحثُ عن أي جائعٍ أو شاكٍ ونسددُ حاجته.. نربأ بأنفسنا عن السرقة، فكونوا عوناً لنا بالنصحِ الرفيق، لا بالإساءةِ الجارحة، عالجوا قروحنا بالدواء ولا تغرزوا أنصالكم في أجسادنا!

ويأتي إليك محيياً فتعجبُ من هذا الرجل وأريحيته واتساع صدره!

يأتي صاحبٌ لك ويقول:

ـــ إن الوالي يجهز حملة لغزو جزيرة قبرص.. هل لك في هذا الجهاد؟

تلتقي بعبدالله بن سبأ وتحدثه عن الذهاب إلى الجهاد فيقول:

ـــ خدعك والله معاوية.. أي جهادٍ الآن والحكمُ فاسدٌ، إن الجهاد هنا..!

ـــ لا تقل ذلك يا أخي.. هم إخوتنا، ونحن معهم على القوم الكافرين!

ـــ استطاعوا أن يخدعوك ويبعدوك!

هذا اليهودي السابق، لا تزال له خيوط بأصحابِ الأخدود، ويحادثُ النجومَ والكواكبَ، ويزعمُ أنواراً لبعض البشر، وهو يقطعُ جملَه الغريبة ببراءةِ البدوي..

يودع زوجته وابنته ويمضي إلى سفينة عملاقة وإلى مارد أزرق لا نهاية له.

٨

يمشي أبو ذر في شوارع دمشق ثانية، عائداً بنفسِ ثوبهِ، وأجواءُ قبرص وصخور سواحلها العملاقة وبيوتُ أهلها الحجرية الصغيرة النظيفة، وشوارعُها المتربة، وصرخات القرويين المسلوبين، كلها تضجُّ في عقله.
تلفتُ انتباهه حشودُ البيوت الجديدة المقامة والقصور الشامخة التي ظهرت في لمح البصر، وكانت هنا ساحاتٌ وغاباتٌ، وفجأة صعدت الأحجارُ فوق الرؤوس!
تتسعُ وتتضخمُ المدينة وقوافلُ البدو لا تتوقف عن الذوبان في أزقتها، والمتاجرُ عامرة، والمشترون قليلون، والذباب هو سيد الأحياء الفقيرة..
ها هي حاراتهم ازدادت ضيقاً وكثافة، وجيوشُ الأولادِ تستولي على خراجِ القمامات، وصراخُ النسوة يشتد على الذباب والأولاد والرجال والدخان..
أية رحلة خائبة وأي جهاد؟! الجيش كان يُكّبرُ فعلاً، لكن بعد أن انكسر العدو نقبوا بيوت نسائه وأسنان موتاه، واندفعوا نحوالأحجار (الكريمة)، فلم تفد صرخات الجنود المستسلمين ومد أيديهم سلاماً..
وما كاد يعرف بيته، ودخل وكانت زوجته الشاحبة بانتظاره، ومرضُ ابنته يحدقُ فيه ببشاعة. صفراءُ منتفضة من الحمى، احتضنهما، وبالمالِ الزهيدِ الذي حصل عليه ذاقت ابنتهُ الفاكهة وتلحفت امرأته..
تقول:
ـــ ما أوحش الدنيا بدونك!
ـــ ألم يسأل عنكما أحدٌ؟
ـــ بعض أصحابك، وعبدالله بن سبأ..
ـــ ومعاوية.. ألم يرسل لكما شيئاً؟
ـــ هل هو يكف عن استقبال الوفود وجموع الناس.. لا بد أن تذهب إليه بنفسك لكي يدري بوجودك!
ـــ تركتما هكذا.. جائعتين مريضتين؟
ـــ أصحابك كانوا يطرقون البابَ ويقدمون لنا أشياء، هل كنتَ تعتقدُ أننا سنحيا بتلك الدنانير العشرة التي تركتها؟
ـــ وكان الجهاد.. شيئاً.. فظيعاً!
ـــ حسبتُ أنك ستعودُ بجارية تدفئ عظامك في زمهرير شتاء دمشق!!
ـــ حين ترين الجثثَ على مدى النظر متروكة للنسور، والجند المسلمين يندفعون للخزائن والنساء، تموتُ كلُّ الرغبات فيك، وتقولين لا بد أن نجعلَ قلوبَ هؤلاء الرجال مسلمة بشرية قبل أن ندفعها لسرقة الأمم!
لتعرفهُ الآن الساحاتُ والغيومُ والحراس والطرقات والأسمال والخزائنُ الممتلئة بعظامِ العاملين، لتعرفهُ الآن هذه الحاراتُ المثخنة بالجراحِ وبالحشودِ والمعارك، ولتحمّر جباهُ الكبار وتنتفخ عيونهم بالغضبِ والكرهِ، ولتندفع أيديهم إلى الأنصال والسيوف!

يصرخُ في المسجد:
ـــ أيها الناس ليس هذا جهاداً الذي يقومُ به معاوية بل سرقة، إنهم جماعات من اللصوص ينقضّون على دجاجِ الفلاحين وأسنانِ زوجاتهم الذهبية وينتزعونها من أفواههن..
يحضنهُ عبدالله بن سبأ:
ـــ أهلاً أبا ذر!
ـــ أهلاً عبدالله صديقي وحبيبي!
ـــ ألم أقل لك لا تفيد هنا سوى الحرائق تشتعلُ في قصور الأمويين والسادة، وما هذا الجهادُ سوى خدعة..!
ـــ لا يا أخي.. لا نريدُ النيرانَ، بل النصائح ونشر الأخلاق..
يضحكُ ابن سبأ وهو يهتزّ عند عمود من أعمدة المسجد.
ـــ بعدما رأيتَ العذابَ في السفينة والجوعَ والبردَ ودخلتْ الأنصالُ في جسدك وعدتَ خاوي اليدين من الذهب والفضة، لا تزال خائفاً؟!
ـــ لستُ خائفاً يا أخي لكن لا أريد أن أنتزعَ شيئاً من أجل الفقراء فأحرق مدينة بكاملها!
ـــ لتحترق مدنُهم، فالأكواخُ ستعودُ بعد ساعة لكن القصور تذهب إلى جهنم!
ـــ وكلّ هذه النفوس التي ستلتهمها النيرانُ وكلّ هؤلاء الأطفال الذين سيحترقون، ولم يتمتعوا بأي شيء، وأهلك، وأهلي، وأصدقاؤك.. كل هؤلاء الناس الذين سوف تُدخلهم في اللهيب دون أن يعرفوا شيئاً، أو تشاورهم بكلمة..!
ـــ سننظف الأرضَ من هذه الأوساخ، النور الذي يأتي من السماء سيعيدُ تكوينَ هذه المزبلة.. الأوانُ قد حلَّ، لتتجسدَ الروحُ العليا في هذه المادة الطينية الخسيسة والتي لن تتبدل دون شوائها إلا بالنار، ووضعها في الفرن.. فكنْ صانعَ ضوءٍ ونارٍ، لا متحدثاً فقيهاً ثرثاراً!
ـــ أي كلام هذا؟ نورٌ في الأعالي يحلّ في إنسان ويقدرُ بذاته على تغيير كل شيء؟! هذا جنونٌ يا عبدالله!
ـــ كلّ الأنبياء كانوا هكذا، يلتقون بنور وبه يغيرون مستنقعاتِ السوءِ والفقر والهوان!
ـــ دعني، أنا لا أريد مثل هذه الأنوار النيران، بل سأتحدث وأنشر كلماتي علّها تبدل القلوب القاسية.. وإذا وجدتُ شيئاً من نارك فسوف أطفئها حتى لا تحرق بشراً لا دخل لهم في جنونك!

في عمقِ الظلامِ ينهضُ معاوية ويغتسلُ ويفتحُ الجلدَ الكبيرَ ويقرأ. صورُ القياصرة تتوالى على شاشةِ وعيه، توغلوا في الأحراش والغابات وراءهم جيوشٌ حاشدة صلبة تثقبُ المدنَ والناسَ، تدكّ القلاعَ، ودفاتر كثيرة تُسَجلُ عليها الأشياءُ، وأقاصيصٌ وحكمٌ وقوانين تُحفظُ..
يسيرُ نحو الصلاة بحرسهِ، ويعودُ للمجلسِ العامر بالناس، ويفطرُ القومُ ويأكلون بشهيةٍ صباحية مخيفة، ثم يبدأ المجلسُ فيستمعُ إلى الشكاوى التي لا تنتهي كأنها وجعٌ أبدي لهذا الجسد الإنساني الممزق، وهو يطلقُ كلماتهِ التي تفضّ النزاعات وتضعُ النقودَ في جيوبِ الفقراء، وتبوأ التجار مراكزَ كبيرة في المدن، وتضعُ يديهِ على الأراضي والخراج، وتقللُ من عذاباتِ النساء، وتحشدُ الجنودَ له..
يقولُ له حاجبهِ:
ـــ سيدي الأمير، إن أبا ذر لا يعرف شيطاناً ولا عفريتاً سواك، أنت سبب كل المصائب والأمراض.. لا بد لنا من الفتك به!
كان قد فكر طويلاً في أمر أبي ذر. إن كل الحيل التي رصدها خصيصاً له لم تؤثر فيه، إن العديد من الإغراءات لم تصل إلى إطفاء جذوة كراهيته.
(ليحب الفقراء وليدافع عن المظلومين لكن لماذا لا يفكر بنفسه؟ إذا ذهب الإنسان فماذا تنفعهُ كل القيم والكلمات الفارغة؟ كما أنه لا يورث ملكاً لأهله، أو يجمع مالاً لأولاده؟! ما هي هذه النفسية الغريبة التي تدمرُ جسدَها وصحتها من أجل الآخرين الذين لا يأبهون لها ولا يقيمون وزناً لتضحيتها؟!).
ـــ بماذا يأمرنا الأمير؟
ـــ ألا يزال يأخذ تلك الدنانير الثلاثة الضئيلة ويعيشُ بها؟
ـــ نعم، وهي لا تزيد على ثلاثة للشهر..
ـــ أعطوه مبلغاً كبيراً هذه المرة، ولتذهب إليه في أول الليل والناس لم تنزو في بيوتها بعد ..
وقبل أن يذهبَ الحاجب سأله:
ـــ وماذا عن عبدالله بن سبأ، (صديقنا) الآخر؟
ـــ لقد التصق به رجلنا وصارا صديقين حميمين..
ـــ كيف؟ هات التفاصيل!
ـــ لم يجد ابن سبأ سوى أبي ذر صديقاً ومعاوناً له في كراهيته لكم يا أمير.. وحين اختلفا ورفض أبو ذر أن يدعو لما يدعو إليه ابن سبأ، صار هذا الأخير وحيداً، يبحثُ عن نصير دون جدوى، حتى دفعنا صاحبنا إليه، والذي تظاهر بالشك والحيرة والألم لما يقوله ابن سبأ ثم اقتنع وغدا متحمساً له، ففرح عبدالله ودعاه لأن يكون عينه في الشام..
ـــ هل يعتزم أن يرحل؟
ـــ نعم، يقولُ إن الشام أرضٌ غير خصبة وهو سوف يسافر إلى مصر..
ذهب الحاجبُ وتأملَ هو الموقف: (هل هو مثل أبيه أبي سفيان بن حرب الذي شك بالآخرة حتى في أيامه الأخيرة؟ أي بعث ذاك؟ هل أجسادنا تُبعث هكذا؟ ونحاسب؟ نعم هذا.. حق. لكن ما العدل

في هذه الحياة الدنيا؟ نحتذي نماذج السابقين أم أنني قادر على عمل نموذج جديد آخر؟ نموذج الملك الصالح.. وأستطيع أن أقدم دفاعي يوم القيامة بأني كنتُ أعملُ الخير.. أي خيرٍ فيما أعمله؟!)..

يقرأ في عمق الليل وتناديهِ الأفكارُ؛ (الخليفة الفقير، أمير المؤمنين الزاهد..؟ انظر قصور الرومان انظر عظمتهم وفتوحاتهم..! وأبو ذر يصر على الخليفة ذي الأسمال، الذي يعبرُ بركة مياه المطر مثل الرعاة والحفاة.. لا يا رجل، جاءَ عهدٌ جديدٌ!).

يستدعي الحاجبَ من أول الضوء:

ـــ هل ذهبت إلى أبي ذر وطلبت منه استرجاع الثلاثة آلاف دينار التي أعطيته إياها خطأً؟

ـــ نعم..

ـــ لا بد أنه كدسها لديه وادعى أنه زاهد فقير..!

ـــ لا يا أمير، لقد راقبته عيوننا، وقد توجه إلى الحارة ووزعَ النقودَ على الفقراء، وفرح الناسُ كثيراً بهذه الدنانير التي لم يحلموا بها!

غمغم معاوية بأسى:

ـــ لا يمكن اصطياد الرجل الشريف!

١٠

حينما تنمو الدسائسُ ببطءٍ ينزعجُ معاوية، وكلّ يومياتِ السياسة متكررة بليدة، لا حدثَ ملتهباً يرفعهُ للقمةِ. والفجرُ مثل آخر الليل يقضيهِ بالمراقبةِ والدرس، وبتصفحِ وجوهِ الناس ولم المال والأصدقاء.

جميلٌ أن يغدو عمرو بن العاص منفياً عن المُلك ويستقبل قبائل التجارة والرحالين بغضب، ويوزعُ النقدَ والشتائم. أرسلَ عمرو رسالة إليه لكي يكونَ معهُ فصمتَ عنه.

(ما فائدته هنا معي!؟).

وابن السوداء رحل وسوف يغذي الفتنَ في أرضِ مصر الباردة..

كلّ شيءٍ جيدٌ لكن الأمورَ تمضي ببطءٍ مريع إلا حب عثمان له!

(صار لي نصف المشرق، ملكي يكبرُ وتتقلصُ ملكية الخلافة وغداً يرحلُ الخليفة العجوز وتنبسط لي الأرضُ كالسجادة، ونعودُ حكاماً كما كنا لكن على ملكٍ أوسع، يا ليتك كنت حياً لترى هذا يا أبي!. من يستطيع أن يدير شؤونَ الناس غيرُ الأغنياء الحكماء؟ هل يمكن أن يفعلَ ذلك فقراء؟ لكن إذا مات عثمان فجأة ستسقط الخلافة في يدِ علي كالتفاحةِ الناضجة ويبقى سنين طوالاً ويتطلع إلى نزعي من الولاية! هذه هي المشكلة بل المصيبة القادمة!).

يدخلُ الحاجبُ إلى القاعةِ بتوتر. فيحدقُ فيه بتساؤل. يقول:

ـــ يا سيدي! أبو ذر مرة أخرى يريدُ الاستئذانَ ويفجرُ ضجة عند الباب!

هذه مشكلة أخرى. شوكة زرعها عمر في خاصرتي. قادة الفقراء!

ـــ دعه يدخل ولتكن المرة الأخيرة!

يمشي أبو ذر بهدوءٍ محدقاً في القاعة المترامية. يصرخ:

ـــ أجعلتها قيصرية يا ابن أبي سفيان!؟

ـــ أخي العزيز أبا ذر!

ـــ ما هذه الأبهة المتزايدة..؟

ـــ لوازمُ الحكمِ والسلطان..

ـــ كيف تزعمُ أن المالَ هو مالُ الله لا مالَ المسلمين؟ أتريدُ أن تحوزَ عليه!

ـــ مال الله أو مال المسلمين ما الفرق؟!

ـــ الفرق أن الله غني بنفسه، أما المالُ فهو حاجة الناس..

ـــ أراك قد أسرفتَ في الهذيان!

ـــ أتريدُ أن تضيّعَ المالَ بهذه العبارة، أتعتقد أنك تخدعنا إذا أضفت كلمة الإله!

ـــ بل أوسع الرزق على الناس أيها البدوي!

ـــ ماذا تقول؟ بدوي..؟

ـــ أجل بدوي، لا يمكنك أن تعرفَ ماذا يجري. أيامُ الشظفِ قد انتهت، لسنا في غفار، والناسُ الآن في نعيمٍ لدي، انظرْ هل يتذمر أحدٌ في الشام؟ انظرْ إلى مجلسي وأعطياتي، الخيرُ عميمٌ والناس سعداء، أريدُ أحداً هنا أن يثورَ فلا أجد! وليس هو مثل الأمكنة التي فيها صحبك. الكوفة والبصرة ومصر، حيث التذمر والشقاق.. لماذا لا تذهب إلى هناك وتنشر العدلَ وتريحني!

ـــ أرى أن وجهك الحقيقي قد وضح وسقط قناع الدماثة!
ـــ لقد أخرجتني عن طوري، وتنقدني أمام الحرس والناس.. فلم أعدْ أحتملك..!
ـــ ماذا ستفعل؟ هل ستحبسني؟
ـــ لا ولكني قد تعبتُ معك! تكذبني وتشاكسني في كلّ شيءٍ وكأنك شريك لي في الحكم!
ـــ من أنت؟ لستَ سوى والٍ من ولاة المسلمين، موظف عند الفقراء لكنك تدسّ يدك في جيوبهم!
ـــ اذهبْ عني!
توجه لحاجبهِ وغمغم:
ـــ أكتبْ رسالة عاجلة للخليفةِ لكي يخلصني من هذا الرجل. أذكرْ فيها أن أبا ذر الغفاري يفسدُ عليّ حكم الولاية، وينشرُ الاضطرابَ بين جموع الناس المسالمة ولم أعد قادراً على ضبطه!

حشدٌ من الفقراء وبعضُ التجار والوجهاء يودعُ أبا ذر.
ربما كانت آخر مرةٍ ترى دمشق فلتكن نظرة وتحية الوداع إذن!
مرة أخرى ناقة، والدربُ الطويل والضنى والشمسُ الحارة والرمالُ التي لا تنتهي!
هناك حزنٌ يخنقهُ، حزنٌ لم يتعودهُ، حزنٌ كثيفٌ رهيبٌ. تأملَ دمشق والحشود وانفجرَ سؤالٌ لم يعتده: من سوفَ يُقتلُ من هؤلاء؟ من سوف يبقى؟ ما هذا الأفقُ المليءُ بالنار والدخان؟!
بانت أشداقُ السلطان المسنونة كأسنانِ القرش، ورأى جيشَ الرومِ بثيابٍ عربية، وبكلماتٍ إسلامية!
ـــ يا سيدي ألا تريد أن تأكل؟!
هذه صرخة أحد الحارسين اللذين يوصلانه مخفوراً إلى المدينة. لكن لم يشعرْ بالجوع، وحدقَ في الرجلين مذهولاً، وصرخ خاطرٌ في نفسهِ: صار لنا حراسٌ يخرسون الكلمات!
الآن هذان الرجلان يحبانه ويضعان على رأسهِ الظلال ويقدمان لهُ الماءَ والطعام، ويتحدثان معه، لكن الجنودَ الذين سيأتون بعد ذلك كيف سيكونون؟ هل سيسقون أصحابَ كلمة الحق الماءَ؟!
(آه أنا عطشٌ!).
ما هذه المفازات التي صارت تأكلنا؟!
انظرْ إلى الصحراء الشاسعة، موطنُ الجرابيع، ظهرتْ منها الحشودُ، وقد تعودُ إليها، كما تعود أنت.. الثعلبُ الذي دخل الحديقة جائعاً عاد الآن إلى غفارهِ، استخدموهُ فترة ثم تقاعد عن العدل بل فصلوه..!
يكادُ ينهارُ من الحر، (لماذا لا أتكيفُ مع سلالة الديباج، لماذا أحنّ إلى عيشةِ البراري الحرة والزهد؟ لماذا لا أندفعُ لتلك الأطباق الواسعة الشهية مفكراً في الأزقة وصرخاتها؟).
هذه هي أشباحُ المدينة تطلّ من بعيد، والبناءُ اتسعَ وتجاوزَ حدودَها الأولى، واندفعت القصورُ والبيوتُ الفخمة وضاعت الأزقة وراءها وغاصتْ في الحجر!
(الآن صرتُ خارج هذا التاريخ.. لم يعد لي مكانة فيه. ظهرت الوحدة الممضّة!).
حشدٌ هائلٌ ينتظر. من يستقبل هؤلاء الناس؟ لعلهم ينتظرون موظفاً رومياً كبيراً قادماً من وراء الحدود!
لكنه رأى أبصارَ الحشد تحدقُ فيه، وسمعَ أصواتَهم ترتفعُ نحوه، والأرجلُ تندفعُ إليه. أصار ملكاً دون أن يدري!
من أين ظهر كلّ هؤلاء الناس ولماذا لم يسمعوا حزنَه الداخلي وصوتَ الوحدة الممض الفاجع!
لماذا راحوا يدعونه إلى بيوتهم والحاراسان يقودانه إلى دار الخلافة!
ثم كيف يغدو مجلس عثمان متجهماً؟ الحاكمُ الرقيقُ مع كلّ الناس يتغيرُ وجههُ ويتفجرُ صوتهُ؟
ـــ ماذا بك يا أبا ذر تنشرُ الاضطرابَ والمخاوف لدى الناس!
ـــ أنا يا أمير المؤمنين؟!
ـــ معاوية يشكو منك أشد الشكاية؟!

ـــ أو تصدق معاوية وتكذبني أنا؟!!
ـــ يا أبا ذر معاوية مسؤول، رجل دولة وأنت تحرض الناس على الأغنياء، وهذا لا يجوز شرعاً لأن هؤلاء الأغنياء يزكّون ويتصدقون.. كم مرة قلتُ لك ذلك؟ لا دخل لك في معاشهم.. وأنت لا تريد أن توقف نقدك وهجومك؟ ماذا نفعل لك؟
ـــ هل هذه القصور والبيوت الكبرى الباذخة ومن ثم تلك الأكواخ الصغيرة التي يموت فيها الأطفال كالجراء تصيرُ حكماً؟ هذا لا يمكن، لم نتعود الدين هكذا!
ـــ الآن تعود واصمت!
ضجيجُ الناس في الخارج لم يتوقف.
دخل علي بن أبي طالب وسمع الكلام. تغير وجهه. لكن أبا ذر كان يحملُ الحزن منذ بدء الرحلة. كان نداءُ الرسول يضجّ في روحه: (يكون وحده ويموتُ وحده!).
قال عليّ بهدوء:
ـــ لا بد لك يا عثمان من أن تكونَ حازماً مع معاوية. من هو الخليفة بينكما؟ لقد استباح كلَّ شيء! وليس مثل أبي ذر الذي يُهان!
ـــ اسكتْ يا علي.. كفاك تحريضاً! سبق لأبي ذر أن قذفَ كلاماً حتى في زمن النبي عليه الصلاة والسلام بحقّ أخيه بلال وقال عنه النبي إن فيه حمية جاهلية!
صارَ حزنهُ فاجعاً. ألا يتذكر شيئاً غير هذا؟!
قال أبو ذر:
ـــ اسمح لي يا أمير المؤمنين أن أكون في البادية، هناك حيث لا أبنية شامخة ولا حراس ولا أحداً أشكوه..
ـــ لك هذا..
علي بن أبي طالب وأبناؤه وصحبه يودعونه وكان مروان بن الحكم يحدقُ في الجمع متوتراً. وامتلأت نفس أبي ذر بحزن فاجع، وسالت الدموع بغزارة!
قال عليّ:
ـــ من حقك أن تبكي أيها الصحابي الجليل!
ـــ بل إنني أحدقُ فيكم. أتطلع إليك يا قامة النور، وأتطلعُ إلى الحسن، وأتطلع إلى الحسين، وأتطلع إلى عمار بن ياسر.. وأرى ظلالاً غريبة وراءكم.. ماذا سيجري لكم؟ كيف ستتقبلون ما يصير؟ إن حزني ليس على نفسي!
ويمضي بعامله وبأشيائهِ الصغيرة وبزوجته وابنته في البراري المقفرة.

الفصل الثالث

حين كان يمضي في ثلته الصغيرة عائداً للقفار ظهرت أسربة كبيرة وجاء غبارٌ خانقٌ. كثيراً ما عاد إلى موطنهِ وكثيراً ما حنَّ إلى البراري، لكنه هذه المرة لم يكن به حنين بل لوعة وخوف.
جثم مع زوجته وابنته بين ثلةِ أشجارٍ وغنم، وهو يرمقُ الأفقَ الذي سيلتهبُ:
(قمتُ بواجبي، بلغتُ، قدتُ زوجتي التعبة عبر البراري والمدن وحشود الناس، حملتُ ابنتي المريضة بين النيران لكن ثمة أشياء أكبر مني)..
صورتهُ الغريبة كانت تنتشرُ في المدن وعلى ألسنة الرواة.
كانت الثلة في مصر تجثمُ بدهشةٍ وغضب. كان الراوي يقول:
ـــ حُمل على جمل وقادهُ الحراسُ بقسوة، بلا أكلٍ ولا ماء، يعبرُ البراري القاحلة، وأغلظ له عثمان القول ونفاه إلى البرية المجدبة!
كان التعجبُ والدهشة والألمُ، توقفت الأيدي عن الحمل، والأفواهُ عن المضغ، وعاد الرجالُ مهمومين من السوقِ والدروب، ونزل ليلٌ باردٌ معتمٌ، وصخبتْ ريحٌ شديدة في الأعالي، ورمقت النسوة بريقَ النجوم الأخير خائفات، وتعالى صراخُ الأطفال فضممنهم إلى صدورهن.
قال الراوي:
ـــ انظروا ثمة صدعٌ في السماء، لم يعدْ الإلهُ راضياً!
قال عبدالله بن سبأ بين جماعته:
ـــ ها قد أطبق الظلامُ، هرب القمرُ إلى جهة نائية، وأعطانا الله إشارة أن نستعيدَ النورَ الضائع، أهلُ الظلمِ والظلامِ انتشروا، لم يعد ثمة ضياءٌ بعد أن غيبوا أبا ذر ودفنوه حياً في الرمال. ألم أقل له إن النصيحة غير جائزة للظالمين، كيف تريدُ أن تتصدقَ على النمر وهو يفترسك؟! وأنتم حذار أن تضعفوا وتصيروا مثله! ما بالكم؟ هل سوف تواصلون الهذيان وتعزفون ألحانَ الرحمة والعطف وانتظار الصدقات من الحاكمِ الجائر؟! تغفون لسماعِ الخطب في هذا المجلس وتعودون تعبين إلى زوجاتكم. فمتى تشمرون عن سواعد الجهاد؟!
كانت الرؤوس حامية والألسنة صاخبة.
قال:
ـــ أيها الراوي احملْ كتابنا هذا إلى إخوتنا في الكوفة والبصرة، أخبرهم عن حالنِا، فنحن مشتاقون إلى العمل!
خيطُ الكلامِ يمتدُ عبر الرمالِ والشجرِ والدروبِ الساخنة، والفرسُ تُستبدل في أكثر من محطة، والرؤوسُ المدفونة بين أكياس القمح ترتفعُ، ويتوقفُ الزراعُ عن العمل، والفرسُ تجري مثيرة الغبار والكلام وراءها، والكوفة الملقاة فوق رملٍ متوهجٍ تقرأ رسالة غريبة، يحملها راو مجهولٌ إلى أزقةٍ متوارية وراء الكثبان، فيتوقف الحدادون عن طَرقِ المعادن، ويعودُ الرعاة من البراري حاصدين عشبَ الحديث، وتطول ليالي السهر، والراوي لا يتوقفُ راكباً حصاناً جارياً به على ضفةِ النهر، ويعبرُ أرتالَ الخيام وحشودَ الساهرين تحت النجوم وبين نيرانِ الذبحِ ودخان الشواء..
ـــ يا أخا العرب تعال تفضلْ بيننا.. لم أنتَ في عجلةٍ من أمرك؟

ـــ لديّ قصة أعظم من سوالفكم هذه..
ـــ هات تكلم!

حشدٌ كبيرٌ في المجلس. يدخل الأشتر وصعصعة، والقوم يحيّونهما. وكان الوالي سعيد يتصدرُ المجلس وأمامهم بضع طاولات عليها شيء من التمر والفاكهة.
كان الوالي يخوضُ حديثاً قطعهُ دخولهما:
ـــ الجهادُ عظيمٌ، وكل العرب ساهمت فيه، غير أن قريشاً لها السبق في كلّ شيءٍ، وأرى هنا بعض الأعراب يستنكفون من هذا، ويقللون من قريش التي كانت وما زالت عماد العرب والإسلام... فلا تقل يا عروة إن عرب هذه القبائل البعيدة هم مثل قريش.. لا! هذا محال!
ضج المجلسُ بالصراخ، وتلفت الرجالُ بعضهم إلى بعض متعجبين. وقال رجلٌ:
ـــ حتى الوليد الوالي السكير السابق لا يمكن أن يقول مثل هذا الكلام!
رد عروة الذي ضاع بعض كلامه في الضجيج:
ـــ .. يا أخ سعيد، بعد رحيل صاحب الدعوة لم يعد أحدٌ من قريش أو غير قريش سوى أناسٍ متساوين أمام الله!
ـــ متساوون؟! من أين أحضرت هذه الكلمة؟ هل نحن الذين ضحينا وأسسنا الحكمَ ونشرنا الدعوة مثلكم أنتم الذين كنتم ماعوناً لهذه الدعوة ومؤيدين لها تارة وناكثين تارةً أخرى.. هل تكونون مثل أمير المؤمنين ومعاوية وسعد بن أبي وقاص..؟!
كان ثمة حشدٌ غريبٌ في أواخر المجلس، من ذوي الأسمال والثياب البسيطة، فتقلقلَ ووصلت حركتُهُ المنتفضة إلى جسد الأشتر فحدقَ فيهم، وطالع حرقوص بن زهير السعدي بينهم الذي نظر بغضب مروع إلى سعيد.
قال الأشتر:
ـــ لا نريد أيها الوالي أن نخوضَ معك في حديث عن قريش ومكانتها التي نعزّها كلنا ونقدرها، لكننا نقول إن دولة الإسلام يتساوى الناس جميعاً تحت ظلها الوارف، ولا يجوز أن تعطى لبعض الناس مهما كانت مكانتهم أملاكاً هي من مال الناس، كما حدث مع طلحة بن عبيد الذي أعطاه الخليفة أرضاً زراعية شاسعة بدون وجهِ حق في بلدتنا هذه!
صاح صاحب الشرطة:
ـــ ما بالك تصيح وتذكرُ اسمَ الخليفة مجرداً وتتهمه؟!
عمّ الصياحُ المجلسَ وتحرك الجسمُ الخلفي من تلك الأجساد ذات الأسمال، وقال سعيد بدهشة:
ـــ من أنت يا هذا لتتهم الخليفة أمير المؤمنين بأنه أعطى بدون وجهِ حق.. الخليفة يحقّ لهُ أن يهدي ويعفو ويمتلك..
صاح حرقوص:
ـــ كل الأموال صارت لكم؟!.. وهل طلحة رجل فقير معوز ليُهدى، ألا تخشون الله؟!
صرخ صاحب الشرطة:
ـــ من أنت يا هذا لتشتمَ رؤوسَ قريش؟
قال سعيد:

ـــ هذا رجلٌ تجرأ حتى على النبي صلى الله عليه وسلم حين قال له (اعدلْ يا محمد!).. أمثلُ هذا الكلام يوجه للرسول يا حاقد؟!

قال حرقوص:

ـــ أين أنتم منه.. لقد توغلتم بعيداً عن سنته..

قال فتى كان طوال الوقت صامتاً وحين حدث هدوءٌ انتهز الفرصة ليجربَ صوته:

ـــ والله إنك أيها الوالي لتستحقّ ملكَ هذا السواد كله!

تطلع إليه صعصعة بغضبٍ وصفعهُ بقوة، فسقط الفتى متألماً، وقام شخصٌ آخر وهجم على صعصعة، فأمسكهما القومُ وأعادوا الهدوء المتوتر بضع لحظات مشحونة.

قال الأشتر:

ـــ أتوافق أيها الوالي على كلام هذا الصبي؟

سكت سعيد لكن صاحب الشرطة اندفع:

ـــ هذا صبي صغير أتأخذ بكلامِ صبي..؟!

لكن سعيد قال ببرود:

ـــ من أنتم بالنسبة لقريش الرفيعة في العلى؟ حتى إذا أخذت البساتين ووزعتها على المجاهدين!.. أنتم بدو التحقتم بخدمتها وتكاثرتم على عسلها!

نهض حشدٌ واندفع إلى مكان سعيد وهجم عليه!

فقام صاحب الشرطة وجماعته بالهجوم على الحشد، وانتزعوا الوالي من بين الأيدي، وتعالت العصي فوق الرؤوس، وتم شق طريق بين الجماعة المتداخلة المتضاربة للوالي، المتعثر، الدامي، وجاء حشدٌ آخر، ومضى الوالي وجماعته نحو قصره ودخلوا فيه، وأغلقوا الأبواب وتم حصار المبنى!

٣

دربٌ طويلٌ متعرج، وفلوات ووهجٌ حارقٌ وسيرٌ عسير وقد أخذهم الحراسُ الغلاظ في دروبٍ بعيدة عن القرى والنجوع وساروا بهم بين الكثبان، وأخذت الشمسُ تصبحُ شموساً وتتقلقلُ بين أعينهم، وتتراءى الأسربة في كلّ مكان، والقوافلُ تمرُ بهم وتسبقهم..؟

يقول مالك الأشتر لصعصعة:

ـــ إن دمشق بعيدة جداً، وإذا ظللنا نسيرُ هكذا فسنموتُ بالقيظ وبسياطِ الشمس وصفعاتِ الرمال!

يصرخُ صعصعة:

ـــ أكنتم تتوقعون مثل هذه الرحلة يا إخوان؟ والله إن هذا العقاب لا يقوم به إلا الأباطرة..!

ـــ (إن الملوك إذا دخلوا قرية..)!

يردّ كنانة:

ـــ من أمر بهذا؟ الوالي أم الخليفة.. يا لهم من أنذال!

يعلقُ صعصعة:

ـــ لا أعرفُ لماذا اختارنا نحن وهناك حشودٌ كثيرة في الكوفة تشاجرتْ مع هذا الوالي وجماعته..

يتوقف:

ـــ أيها الحارس أريد ماءً!

يتأمل الاشترُ الخيطَ الطويلَ من الأصدقاءِ والحراسِ والخيولِ الذي يتوغلُ في الصحراء، وكأنه سربٌ تائهٌ من الماشية، لكنه سربٌ متكلم، مُنتزعٌ من غرفهِ الباردة وحقولهِ ومجالسه المغزولة بالشعر والحكايات، يغطي رؤوسَهُ بالعمائم وعيونه بالأصابع، وأفواهَهُ بالأيدي، والرمالُ تتخللُ اللحمَ وتصلُ إلى الحلق، والسير لا ينقطع، وكلما ظهرت حشودٌ من الكثبان أطلتْ جبالٌ من العتمة والصخور السوداء والأفواه النازفة بأخاديد غريبةٍ من البياض، وتعصرهم مساحاتٌ من الرمالِ الصفراء ثم تغربلهم تربة من الحصى الصغير المتدحرج، وليس سوى الليل جميل، ورؤيةَ ساحة السماء الضوئية، ومضغ كسراتٍ من الخبز والنومِ على ألحفةٍ يابسة وجعل النعال وسائد وشمّ كل روائح النهار.

والحراس حريصون على إبعادهم عن الزرع والضرع، تماثيل من حصى تمشي معهم. كيف تكونت أكبادهُمُ الغليظة بين ضحية وضحاها؟ هؤلاء أنفسهم الذين قاتلوا معهم ليفتحوا السوادَ وليطردوا الفرسَ وليسمعوا صرخات سعد بن أبي وقاص الحماسية وقتلوا معهم الأفيالَ وأسقطوها في المياه، وبنوا الجسورَ واحتموا بسواعدهِم وتروسهم ليقتحموا المدائن، ماذا جرى؟! كيف هم الآن غرباء بعضهم عن بعض..؟ كيف تسربتْ بينهم الأشواكُ والأفاعي؟!

بودّه لو يسأل هذا الحارسَ الخرس طوال رحلة العذاب هذه، لماذا لا يشفق عليهم؟ لماذا لا يحنّ لهم ويطلق سراحهم ليلوذوا بهذه الصحراءِ الواسعة ويصيروا صعاليك أو حتى ضببة؟

يقول ل(صالح) الذي بقربه في هدأة الليل:

ـــ كيف نحن صرنا هكذا؟ أتينا إلى هذه الديار حشداً من الإخوة والأصدقاء والآن.. نُجرّ كالإبلِ لأننا ضربَنا الوالي الذي قال إن السوادَ بستانٌ لقريش؟!

صالح رجلٌ شرسٌ حين يضع رأسه على النعال أو الحصى ينامُ بسهولة، ويندفعُ للأكلِ كهامةٍ، ولا يفكرُ الآن إلا في جسدهِ شُرباً وأكلاً ومضاجعة، فلم يسمعْ السؤال.

يهزهُ فيصرخ:

ـــ دعني أيها الأشتر، وكفَّ عن فحيحك هذا.. أية أسئلة تبصقها علينا الآن!

وينام ويتصاعدُ شخيرهُ وهو مربوطٌ قربه وغير قادر على البعد عن هذا البطن الضخم والصدر الذي يشبه القربة والفم الذي يطابق كير الحداد!

يسألُ الأشتر النجومَ فلا تجيبُ، ويأتي الصباحُ متجهماً كبدوي يدركُ ثأراً، ويغرزُ فيهم أنصالَهُ متشفياً، وتقودهم الحبالُ والسياط وحمحمة الخيول في طريق الصحارى، ويرون بدوية تقود غنماً، فبدتْ هي الكائن البشري النادرُ الذي يؤكدُ إنسانيتَهم في هذا القحط الأصفر، تقولُ المرأة وهي تحدقُ بهم:

ـــ أأنتم عرب مسلمون؟!

ـــ نعم، نعم يا امرأة..

ـــ والله إنكم لكاذبون..

يضحكون منها، ويسألها الأشتر:

ـــ وما الذي جعلك يا أختاه تنفين عنا ديننا بعد أن ألغوا كلَّ آدميتنا؟!

ـــ لم نر أن المسلمين يتصارعون فكيف أن يتمّ جرهم كالغنمِ في الرمضاء؟!

ـــ أواه يا أختاه أثرتِ لوعتنا أشدَّ من هذه الحبالِ وهذه السياط!

ـــ أذهبي لسعيد بن العاص وأسأليه.. وربما عثمان بن عفان أيضاً!

ـــ أو تجرأتم على خليفة المسلمين؟!

ـــ المسألة صعبة أيتها الراعية..

صرخ كنانة:

ـــ نعم نتجرأ عليه!

تدنو الخضرة والبيوتُ، لكن الصخورَ والرمالَ لا تفارقهم، وتظهر القرى الصغيرة كأنها حشائش أو جريدٌ محاذٍ للبرسيم والزيتون والحمام، وتتدفقُ المياهُ بين الترابِ وتظهرُ سحناتٌ بشرية وهياكل عظمية وأسمالٌ تحدقُ فيهم بذهول.

يأتي جندُ معاوية، ويأخذونهم إلى بركةِ ماءٍ ليغتسلوا، ثم يعطونهم ثياباً جديدة ويركبونهم الخيولَ والبغال، ويقولُ قائدهم بأسى:

ـــ يا إخوتنا هذا أمير الكوفة أساءَ إليكم أشد الإساءة، ولم يعرف والينا ذلك. أنتم الآن في أرض الشام، حيث يحكمُ معاوية بعدلٍ وإنصاف.. فانسوا تلك الأيام الأليمة التي مرت!

سأل عثمان كاتبه مروان:
ـــ ماذا يقول هذا الوقح عمرو بن العاص؟
ـــ أمير المؤمنين، لا أحب أن أقرأ عليك ما كتبه..
ـــ بل اقرأه.. ليس لك أن تقررَ عني..!
ـــ (من عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين حفظهُ اللهُ، وأما بعد، فقد حولتم مصر إلى بقرة حلوب لك ولأهلك، وما يلبث الضرعُ أن يجفَّ. أيعقلُ هذا يا رجل، أن تعزلني أنا بعد كل هذا البلاء الذي أبليتهُ في مصر، ففتحتها مرتين، وقاسيتُ مع رجالي أشد المقاساة، وفي المرة الثانية جاءَ الرومُ وكادوا أن يحتلوها كلها، ولولا ما قمتُ به لكنتم الآن في عناءٍ شديدٍ وبلاءٍ أكيد من أمرهِم. ثم تضعُ على رأسي شاباً لا تربطهُ بكَ من روابط سوى قطرات حليبٍ؟، وحولهُ أيضاً كلامٌ مثير خطير، وليس بذي حنكة شديدة أو دراية، والآن أنا زاهدٌ بكلِّ مناصبك ومنزوٍ...)..
ـــ كفى لا تكمل هذا الهراء!
جلس عثمان وكان مروان لا يزال واقفاً، وبيده الرسالة، والمرارة تبدو على وجههِ، فيما تناول الآخر تفاحة وراح يقضمها ويستعذبُ حلاوتها.
يتأمل مروان الخليفة: (هذا الشيخ.. ما هو سره؟ كيف يتخذ مثل هذه الإجراءات الغريبة المثيرة فجأة ثم لا يتراجع عنها؟ ثم يأكل بشهيةٍ أدسم الأكلات ويتزوج في مثل هذا العمر أيضاً؟!).
يسألُ عثمان:
ـــ ما بك؟ تعال اجلسْ هنا..
ـــ يا أمير المؤمنين.. كما قلتُ لك سابقاً أنت تحولُ الدهاةَ إلى خصوم، إنهم هؤلاء الثلاثة.. الذين سيقرضون حكمك.. خاصة هذا .. المنضوي الجديد لهما.. عمرو...
ـــ لقد اختار فلسطين ولم يأتِ إلى هنا.. قلت ثلاثة.. وينضمّ إليهما؟!
ـــ نعم ثلاثة، فأنت تنسى معاوية..
ـــ معاوية؟! وهو من قرابتنا وأهلنا وقرة عيينا في الشام.. صرتَ شكاكاً كبيراً.. أما عمرو فلا آبه له رغم أنه اختار فلسطين من أجل أن يكونَ بعيداً عن متناولِ يدنا، وقريباً من الأمصارِ والقوافل، يبثّ سمومَهُ في أذنٍ كلّ عابر.. لا آبه له بسبب أنه لم يعد لديه شيءٌ كبيرٌ يفعلهُ، بعد مصر وسياحته العسكرية على حدودها. انتهى شأنهُ وقام عبدالله بن أبي سرح بإنشاء الأسطول وغزو البحر.. وبسبب أنه لم يعُدْ له شأن فقد غضبَ، ويريدُ إثارة الناس عليّ.. يكفي أنه حكم مصر كل هذه السنين وصارت عزبة لهُ ولأهلهِ.. ثم يردّ العيبَ الذي فيه إليّ. أكتبْ له بهذا الشأن لكي يعرف مقامه.
ـــ أمزيدٌ من تحريضه؟
ـــ لا بل لكي يدرك حقيقة نفسه..
نهضَ غاضباً فجأة:

ـــ يا للخسة! ماذا يريد من الدنيا بعد كل هذه الثروة والفتوحات..؟ لو أنه يخلد للقراءةِ والدرس، لو أنه يعلّمُ الناسَ.. لكانَ شيئاً آخر.. لكن النمسَ يبحثُ عن الفرائس، ويمضي سنواته الأخيرة وهو يقضمُ جلدَهُ وسيرَ الآخرين، ويسممُ الأجواءَ، ويبحثُ له عن مصائب يستثمرُ فيها بشاعتهُ..

ـــ ومعاوية لا يختلف كثيراً عنه..

ـــ لمعاوية شأن آخر، لقد وهبتهُ الحياةُ كلّ الصفات الكبيرة. الفطنة والتسامح والعمل الصبور المفيد ومراعاة الناس.. في كلّ مصيبةٍ يسارعُ إلى مساعدتي، يؤدبُ عصاة العراق، ويكسرُ شوكة الروم.. إن الأجسامَ المتورمة يفجرها، والجروحَ يطببها.. هل أنت بحاجةٍ إلى أكثر من هذه الصفات؟

ـــ إنه مثل العقرب التي تدفنُ نفسَها في الرمال منتظرة متحفزة ولا ندري مَن الضحايا التالية لها..

ـــ لا، لا.. معاوية هو ابنٌ من أبنائي..

ـــ لا تلدُ الحية إلا حية!

ـــ لماذا تكرههُ؟ أليس من أقربائك أم أنك تحسدهُ وهو بهذا الشموخ في ولايته بينما أنت مجرد كاتب عند الخليفة؟!

ـــ والله إنني أتمنى له كل عزة، لكنك تضخمُ فيه وكلما توفي والٍ في فلسطين أو غرب الشام ضممت الولاية إلى معاوية، ودائماً تمدحهُ وتزيدهُ قوةً ولا تسألهُ فِي شيءٍ من شؤون الولايات المتسعة دوماً، فهذا القصرُ الضخمُ الذي بناه والجيشُ الكبيرُ الذي يحشده والقبائل التي يوزع عليها الأموال، بأمرِ من؟ وبأموالِ من؟

ـــ كفّ، كفّ يا مروان عن معاوية فإنك لن تبلغ مهما فعلت وقلت كعبه!

ـــ لا أريد أن أكون مثله..

ـــ أتريد أن أضع علياً بن أبي طالب والياً على الشام؟

ـــ كلا!

ـــ أرأيت؟ فيما هذا ينتقدنا ويحرضُ الناس علينا يبقى لنا معاوية درعاً وسنداً.. وحين يكون معاوية موجوداً فإنني لا أخاف وأنامُ ملءَ أجفاني..

ـــ لكن حين يغفلُ عنك معاوية فإن أياماً سوداء ستأتي إلينا..

٥

يتأمل الأشتر القصر الواسع بردهاته وأجنحته وحوشه وبركته وأشجاره وعصافيره ويتساءل: ماذا حدث؟ كيف أصبح اميراً في الإسلام بهذا المُلك؟ هل يمكن أن ينسى البيت الصغير الذي كان يسكنهُ وكان هو يأتي إليه! لماذا لم تظل الأشياء كما كانت في عهد عمر، الساسة خدام للناس، وهل هذا أمرٌ عابر أم دائم؟ إسلام يصير قيصرية؟! ماذا سيجري بعد ذلك؟ يصيحُ في نفسه:
(إنه مجرد انحراف وحين يأتي حاكمٌ آخر تعود الأمورُ إلى نصابها! فويلٌ لهؤلاء! لكن هل سيحدث ونسترجعُ ما أخذوه!؟).
الحشدُ الذي معه مبهور أيضاً، حين وضعهم الحراسُ في غرفٍ فارهة، وأحضروا إليهم الطعام، والشراب، فأكلَ بعضُهم بشراهة، واستلقى على الأسرّة، وناموا، غارقين في الفرش الوثيرة العميقة بقطنها الناعم. قارنوا بدهشةٍ بين حصى الرحلة وحشراتها وأفاعيها وعطشها، وبين هذا الاحتفاء الغريب..
وتحلقوا حول الأشتر وصعصعة في أحد المجالس، وحولهم أطباقٌ ملأى بالفواكه، وقال صعصعة:
ـــ يا إخواني لا تغترّوا بهذه النعمة الغالية فإنها منتزعة من آخرين..!
تحسسوا بطونَهم وحلوقَهم وتوقفوا عن الأكل. قال الأشتر:
ـــ إن معاوية.. يرشونا ويجعلنا نقارنُ بين عذاب الصحراء وجنة الطاعة!
تدافعت الجملُ تزدحمُ متضاربة متقاطعة:
ـــ هل رأيتم أعدادَ الحراس والجواري و...؟
ـــ بل هذا الحصى المجلوب من الجبال والخشب من أرز لبنان..
ـــ لو كانت لنا جميعاً لم يكن لدي اعتراض، فالغنى شيءٌ رائع..!
ـــ لو يشاركنا عثمان ومعاوية في هذا البذخ!
ـــ يا إخوتي لا يحق لكم قول ذلك، فعلام العقاب وتحمله إذن؟!
ـــ أنتم تريدون مشاركتهم في السواد!
وأعلن الحارسُ لهم أن معاوية يدعوهم إلى زيارته. فمضوا بين الردهات ووصلوا إلى قاعةٍ كبيرةٍ ووجدوا حاشية معاوية وهو يتصدرها، وحين دخلوا نهض فنهض القومُ معه، ورحبَ بهم ودعاهم إلى الجلوس.
قال لهم:
ـــ لم أكن أظنّ أن الأمورَ سوف تصلُ في الكوفة إلى هذه الحالِ الصعبةِ، فهي من مدنِ الإسلام الجديدة المجاهدة، لكنها ابتليت بهذه الخصومات التي لا تتوقف، فعلام ذلك؟!
أجابه الأشتر:
ـــ يا أخ معاوية، إن الدولة كانت بطريق سليم مستقيم فإذا بهذا الطريق يتغير فجأة ويمضي إلى وهادٍ وحفرٍ، فتصايح الناسُ واضطربت أحوالهم..
ـــ ماذا تقصد بهذا؟ أي انحراف حدث؟

ـــ انحراف الوالي الذي عينهُ عثمان، هذا الذي زعمَ أن السوادَ بستانٌ لقريش، فكيف تكون أملاكُ الناس ملكاً لأسرة واحدة هي مثل أسر بقية المسلمين؟
ـــ لا يا أخ، ليست قريش مثل بقية العرب، إنها القبيلة التي اختارها الله لحكمه على الأرض، فنزلَ القرآنُ فيها، وقد سبقت القرآنَ أيضاً الأمجادُ الوفيرة التي اختصتْ بها، مثل رحلاتِ التجارةِ وإقامةِ الكعبة والحج، وتوحيد الناس، فكيف تساويها ببني جربوع وبني ثعلبة!
ضحكَ بعضُ خاصة الوالي، وتكهربت أجسادُ الحشد، ونهض صعصعة وقال:
ـــ أيها الوالي إن قريشاً لم تكن تصل إلى ما وصلت إليه دون جهد وسيوف العرب جميعاً، ودون ذلك كانت لا تزال تستأجر القبائل ليحموها ويدافعوا عنها!
غضب معاوية وصاح:
ـــ كيف يساويكم بنا وقد أعطانا ولاية الأمر وجعلكم أتباعاً لنا؟!
تصايحَ القومُ من الجانبين. وتدفقت الألسنةُ بالصخبِ، فراح حشدُ الأشتر يتكلمُ في كل اتجاه، فيما صمت الآخرون منتظرين كلمات معاوية.
تقدم الأشتر وقال:
ـــ يا أمير لم تؤذنا وتفجر العداوة بيننا سوى مثل هذه الدعوة.. وإنني أراك مصرّاً عليها؟
واندفع صعصعة قربه:
ـــ رسالة السماء كانت للناس جميعاً، وأنتم يا قريش مثلنا وخاصة أنتم يا بني أمية كنتم أبعد منها، أنتم الطلقاء فما جاهدتم من أجلها.. وأبوك كان قد قاومها حتى الرمق الأخير..!
قال معاوية باستفزاز:
ـــ كنتُ أحسب أن لديكم عقولاً فوجدتُ صبية لا يستحقون عناء الرد والاهتمام..
وتدفق نحوهم الحراسُ فجأة، وأحاطوهم بسيوفهم ورماحهم، وراحوا يقودونهم بشدة نحو الباب الخارجي.

في هذا الليلِ الغريبِ الفاتنِ المحير يمعنُ عثمان في الفكر بحزنٍ، وهو ينظرُ لقوافل الماضي السائرة نحو الشهادات والكتابة في الصخور، ويتساءلُ لماذا يريدون حياتَه مثل حياتهم، والحاضر مثل الماضي، وقد تغير كلّ شيء، ولم تعد صبية البادية تبحث عن الكلأ، وحشود البدوِ سكنت البطاحَ والدور..

لماذا يريدون منه أن يتنكرَ لحياته التي لم يستنكرها العظماء السابقون؟ وهذا الحشدُ من عليةِ القومِ هم الذين دفعوهُ إلى العلى.

يمضي لبيت علي بن أبي طالب، يدق البابَ، يفتح خادمٌ فيركض لعلي:

ـــ الخليفة بالباب!

يصافحُ علياً بود، ويطلّ بعضُ الأبناءِ من الغرفِ مذهولين.

يودّ لو أن علياً يرضى عنه، يقتربُ منه ويساعده كما كان يساعد عمر، لكنه الآن ناءٍ، بل وغاضب، يصيحُ به:

ـــ أمثل هذه الأفعال لا يقومُ بها أحدٌ غيرك يا عثمان.. تقومُ بترحيل مسلمين من بلدتهم ليعاقبهم معاوية؟!

يجلسُ بقربهِ ويقولُ بهدوءٍ وود:

ـــ يا أخي علي.. بعضُ العامةِ شرٌ ووباءٌ، ولا بد من عقابه، إنهم يثيرون الفتن ولا يقبلون بأي شيء!

ـــ ويكون العقابُ ترحيلاً في البراري وتعذيباً بالحر واللهيب والرمضاء؟

ـــ قلتُ لسعيد بن العاص رحّلهم ولم أقل عذبهم، ويبدو أنه ينتقم لنفسه؟!

ـــ ألا تستطيع أن تضبط ولاتك؟ ماذا فعل هؤلاء؟!

ـــ تمردوا على الوالي وأصروا على الشجارات المستمرة والفوضى!

ـــ هل في رفضهم أن يكون السواد بستاناً لقريش أمر خطر وفوضى كما تقول؟!

ـــ لا ليس هذا، بل الأمر في تحديهم لأي أمرٍ منا. يشغبون دائماً بحق وغير حق..

ـــ إنهم يشغبون بحق.. لماذا لم يشغبوا في عهد عمر؟

ـــ لأن عمر كان صارماً يقمعهم بقوة.. وفكروا بأنني ليّنٌ وهيّن فرفعوا رؤوسهم طامعين في كلّ شيء.. تصور أنهم يريدون مشاركة قريش في كل الحكم والمال؟!

ـــ من قريش هذه؟ هل ملكت الناس؟!

ـــ يا أبا الحسن كلنا من قريش.. وإذا نحن سمحنا لأعراب الجزيرة أن يكون لهم الأمر ضعنا!!

ـــ والله إنكم تفسدون كلّ شيء، فكلُّ هذه الأرض ليست لكم أنت وأهلك بل لعامةِ المسلمين فاعزلْ ولاتك هؤلاء ومنهم سعيد ومعاوية وعبدالله بن أبي سرح.. أمثل هؤلاء يوضعون على رأس الدولة؟

ـــ تعال أنت معي وساعدني!

ـــ كيف أكون معك وهذه سياستك وولاتك؟!

ـــ إنني أوزع الأموال على الناس كما أكرم عائلتي، وهؤلاء العامة الشرسون الوقحون لا بد من عقابهم على تمردهم وسبّهم للخليفة وللوالي ولقريش.. يسبون قريشاً التي صنعت عز الإسلام وأنت منها يا أبا الحسن!

ـــ لا ليست قريش بل هو النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته العظام، هؤلاء الفقراء والعبيد الذين احتملوا تعذيب قريش وقاتلوا وضحّوا حتى جعلوه حكماً وطيداً ثم جئتَ أنت ورحتَ تقدمه لهم هنيئاً مريئاً ولكنه لن يكون سوى زجاج في حلوقهم وبطونهم!

ـــ ليس العبيد والفقراء قادرين على حكم شيء، بل علية القوم من يصنع الحضارة، والعروش الوطيدة، وهؤلاء العامة لا يعرفون سوى الكسل والتهام خيرات الأرض والعمل المجبرين عليه، وإذا تسامحنا مع شغبهم انفلت كلّ شيء فحذار يا أبا الحسن من نفث هذا الكلام بينهم، فهم غوغاء خطرون، إذا انفتحت الطرقُ لهم فسوف تشتعل الحرائقُ في كل مكان، وتتصادم الجيوشُ ويتمزقُ ما توحد..

ـــ إذن اعزل ولاتك الأشرار قبل أن يستفحلَ الأمر!

ـــ أأعزل ولاة اخترتهم، ولا أرى منهم شراً، وإذا عزلتهم فسوف يتمادى هؤلاء الأشرار، ويحولون مثال الكوفة لكل المدن.. لا سوف أعاقبهم إذا شغبوا حتى لا تكبر الفتنة!

ـــ وهل تظن أنهم سوف يسكتون؟!

ـــ سوف يسكتون!

كان أبناء علي قد وقفوا قربهما محدقين في عثمان بتوتر فنهض وتطلع إليهم:

ـــ يا أبنائي ساعدوني على أهلي وكونوا معي!

فقالوا جميعاً:

ـــ سنفعل ذلك يا عماه!

الفصل الرابع

١

إن الصباحَ مثل الليالي يبدو مُقبضاً، والكهولة متعبة بأمراضِها، ونزيفِها الداخلي المرير، وهي سنواتٌ قليلة وربما شهور وترحلُ يا عثمان راضياً مرضياً عنك، داخلاً الجنة مع الأبرار..
فما بال هذه الثلل الصغيرة تمزقُ سيرتَك وتطعنُ أهلَك، وحين تذهب إلى الحج عجوزاً منهكاً وقوياً مقتدراً، يحتشدُ حولك الناسُ كأنهم بحرٌ من البشر مرحبين داعين لك بطول العمر؟! لكن كلمات تلك الثلل الصغيرة الحاقدة قاسية، شديدة الوقع على روحك، كأنها سهامٌ مسمومة، لا تريدُ النصيحة بل تريد أن تلتهم جلدك وعظمك!
يدقّ مروان البابَ ويدخل، وجههُ في حالةٍ من التقطيب والتفكير دائماً، كأنه يحومُ أبداً على شيءٍ دون أن يقوله.
يقول:
ـــ رسالة من معاوية يذكرُ فيها أنه طردَ ذلك الجمعَ النزق..
ذهل ورفعَ رأسَهُ باستغرابٍ:
ـــ معاوية.. يقول إنه عجز!
ـــ نعم، أترى ذلك؟!!
ـــ كنتُ أظنهُ سوف يشكمهم بعد أن يعجنهم لشهور.. ثم يطلقُ سراحَهم بهذه السرعة؟! ماذا ترى في ذلك؟!
ـــ أرى أنه رجلٌ ذو دهاء كما قلتُ لك.. إنه يجعلهم يتجولون بين الأمصار ليثيروا عليك الناس!
ـــ لا، لا، لا يمكن ذلك!
ـــ بل هو الحق ناصعٌ، إنه يدرك أنك غدوتَ رجلاً كهلاً، وأن العواصفَ سوف تتجمعُ ضدك، وستحتاجُ إليه بقوةٍ، فيقول لك تعالَ إليَّ وكن في مدينتي وتحت إمرتي، وبهذا..
يقاطعه صارخاً:
ـــ معاوية لا يفكرُ بهذا أيها المتسرع.. إنه شهمٌ ولا يفكر بهذه الدناءات، لكنك تقول ذلك لكي أتجافى معه، وأكرهه وأعزله، ليكون كل شيء لك!
ـــ أتريد أن أبتعد عنك أنا أيضاً؟!
ـــ لا يا ابن عمي، لا تفكر بذلك.. سأبقى وحيداً تنهشني كلُّ هذه الجماعات الطامعة؟
ـــ إذن...
ـــ ماذا يقول معاوية في رسالته؟
ـــ يقول إنه تحدث مع أولئك المشاغبين فما وجد فيهم عقولاً تستحقُّ الحوارَ، ولا نفوساً سامية جديرة بالاعتبار، وما هم سوى صبية ورعاع عودتهم إلى بلادهم أفضل، أو يرحلون إلى أمير المؤمنين!
ـــ يريد أن يحضرهم إلى المدينة!
ـــ أجل، لكي ينشروا كلامَهم البذيء في أهلك وحكمك!
ـــ لماذا يقول معاوية ذلك؟ ربما يدرك أنني قادر على إقناعهم، وإعادتهم إلى جادة الصواب أكثر منه. لكن هؤلاء صبية لا بد أن يتأدبوا بشدة، فاكتب رسالة لكي يرحّلوا إلى الوليد بن

خالد.. ذلك الوالي أشد قوة من معاوية في التأديب والزجر..!
ـــ لكن يا أمير المؤمنين!
ـــ ماذا تريد؟
ـــ فليرسل واحداً منهم أو اثنين فيما يتوجهُ الباقون للعقاب.. حتى تعرف شكاويهم من أفواههم!
ـــ لا، دعهم أولاً يعاقبون ثم أستدعي واحداً منهم يكونُ كبيرهم.. حينئذٍ يكونون أطوعَ للنصيحة والقبول بما يقبلُ به بقية الناس..

٢

الطابورُ يمضي في الصحراء المشتعلة، اختفتْ دمشق وجبالُها وغوطتها وراحت الرمالُ تسفعُ وجوهَهم. لا يكادون يرون بعضهم بعضاً، والخيولُ وراءهم وأمامهم، والسياط تلفحُ وجوهَهم وظهورَهم بين حين وآخر، والشمسُ انتصبت في عيونهم..

يصرخون، يتهامسون، يثرثرون:

ـــ ألم تكن ردهات معاوية ومطابخه أفضل كثيراً من هذه الرمضاء..

ـــ لقد استعجل صعصعة في الكلام!

ـــ صفعهُ بسرعة ولم يتركنا نهنأ قليلاً في ذلك القصر..

ـــ لكن أين سيهرب معاوية من سيوفنا!

ـــ أذاقنا الحلاوة برهة ثم ألقانا في الجحيم!

صرخ كنانة:

ـــ إن أبي لا يكاد يمشي، وهو يسقطُ بين لحظةٍ وأخرى!

ـــ هذا الكهل المسكين..

يمضي كنانة للحراس:

ـــ يا إخواني.. أبي يكاد يهلك.. أعيروه فرساً أو فليردفه أحدكم!

لكن الحراس لا يأبهون، يقولُ أحدهم:

ـــ هيا امشوا أيها الكفرة..

ويقول آخر:

ـــ لماذا لم يقتلهم الوالي ويرحنا منهم!

يتوقف الجمعُ ويحدقُ ورؤوسهُ بين الغبارِ والرمالِ والعرقِ والكراهية، تنثالُ الكلماتُ من بين الرملِ واللعاب والغضب:

ـــ قَبل أشهر كنتم مسيحيين أو وثنيين وركضتم إلى الإسلام وأسلابه والآن تريدون قتلنا؟

ـــ لم يؤمنوا بل سالَ لعابُهم للذهب!

تلوحُ لهم مدينة عالية، وتنتشرُ الحدائقُ على حدود أصابعها الرملية، ويظهر الناسُ كفروعٍ من الحجر، يحدقون فيهم بلامبالاة.

يتطلع الأشتر إلى وجوهِهم الصلدةِ، ويسألُ لماذا لا ينزُّ الدمعُ من عيونِهم، لماذا لا يرون آثارَ السياطِ على جباهِهم؟!

تظهر سحابةٌ من الغبار، كأنها كرة من النارِ تتقدمُ، ويتجسدُ وجهُ الوالي الوليد بين هبة الرمل، كالحاً شرساً:

ـــ الملاعين جاءوا إليّ.. سأذيقكم عذاباً لم تعرفوه.. هيا خذوهم إلى الصحراء كي يحفروا ويدفنوا ظلالهم..

لا خيام ولا ماء ولا ظلال، وأجسادهم محنية، مغروسة بين الحفرِ والتلالِ الصغيرةِ التي يخرجونها من بطنِ الأرض، والشمسُ يرونها في الليلِ أثناء إغماضهم ونومهم، ويتدفقُ العرقُ،

والحر في الليل، والأرضُ التي تيبست وتذرو رملَها في عيونهم، والنساءُ اللواتي غدون أشباحاً مشاكسة، وهم مفروشون على التراب..
ويسأل الأشتر حارساً:
ـــ لماذا لا تدمعون يا أخي، لماذا لا تهزكم آلامنا؟
يقولُ الحارسُ:
ـــ أثناء حكم الرومان وبعد أن جاء العربُ وهذه المدينة تتناوبها الجيوشُ، جيشٌ يخرجُ من حصنِها مثخناً بالجراحِ وآخر يدخلُ حارقاً، غارساً السيوفَ في جلودِها، ونحن ننزفُ قمحنا ودمنا وبناتِنا للأغراب، لم يبقَ لنا دمعٌ، ولم تعدْ المآسي تثيرنا..
وصرخَ الأشتر:
ـــ إلى متى؟ إلى متى ونحن ننزفُ، متى ستصعدُ يا علي.. وتطيحُ خيولك هذه الثلة من التجار النهمين لمصِّ العظام..؟
لا يحلمُ، هربت الأحلامُ، وتشابهت الجلودُ مع الصخور، وغدا الخبزُ كطعمِ القماش الحامض، وراح الحفارون يتشاجرون على قطعةِ ظلٍّ وهمسةٍ في الليلِ، ويمزقون جلودَ بعضهم، صاح كنانة:
ـــ أنت دفعتنا للبرية القاحلة والعذاب يا صعصعة، من جعلك تمضي معنا؟
يصيح صعصعة:
ـــ اخرس.. أنت كنت واشياً وعيناً لابنِ العاص..
ـــ أنا؟ وهذا أبي يموتُ هنا؟
ـــ اخرسوا جميعاً، نحن نقرأ القرآن..
ـــ أيها الحراسُ قولوا للوليد إننا تبنا!
ـــ أيها الحراسُ نريدُ أن نقبلَ نعالَ عثمان ومعاوية وكلِّ آل بيتِ الذهبِ والسياط هذا!
ـــ صمتاً يا أوغاد، باسمِ منْ تتكلمون؟
ـــ أيها الحراسُ.. ها آنذا أدفنُ أبي.. قتلهُ عثمان.. والله لن تفلت مني!
ـــ صلّوا صلاةَ الجنازة والانتقام..

الفصل الخامس

على راحلتك مضيت بعيداً وعبرتَ الدربَ الذي عبرهُ الأنبياءُ.
هنا النيلُ يجري يؤلّف سجاجيدَ خضراءَ تتنامى بها القصورُ والناسُ جياع.
يا ابنَ البيضاء يا عبدالله هات نورَكَ وانشرهُ في هذه المساكنِ الرثةِ، لا أحدَ يأبهُ لك، لا أحدَ يعرفك وغداً ستعرف الأمة أي هدي أنت تحملهُ!
فقراءٌ كثيرون يجاورون المسجدَ ويتسولون، في لحظةٍ وامضةٍ سرقَ الأغنياءُ ميراثَ الأنبياء!
تندغمُ في حشدِ المصلين، تتابعُ الوجوهَ، كان الواليان القرشيان لا يتنازعان على قيادة الصلاة كما يتنازعان على قيادة خزانة البلد، عمرو بن العاص بمكرهِ وهدوئهِ وكهولتهِ وتجاربه، وعبدالله بن أبي سرح بشبابهِ ورعونته وحركته السريعة، رأسان تضاربا وانكشفت سحابة غبار الحكم الكالحة عن وجه وحيد، ورحل عمرو محملاً بالغنائم إلى دائرة الحقد المريعة..
تغلبوا على الفقراءِ بالدهاء وما على هؤلاء سوى أن يرفعوا رؤوس التمرد؛ (أعني يا إلهي على أهل السوء!).
ثلل هنا وهناك، صلاة خاشعة ثم نزولٌ إلى سفاسفِ الدنيا، تسمعُ الناسَ تثرثرُ في المجالس والمشارب:
ـــ غاب عمرو بن العاص الذي ملأ مصر بعدله..
ـــ رجلٌ صاحب خبرة وعلم لا مثل هذا الطارئ الى الدين والحكم!
ـــ يكفي أنه بدل في آيات القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم أهدر دمه ذات يوم، ثم يجيء إلى مصر حاكماً!
ـــ ألم يجد عثمان من كبار الصحابة أحداً!؟
ـــ أيها الناس ما بالكم تذكرون ماضياً غابراً والرجل أثبت شجاعته ونشاطه!
ـــ اخرسْ يا شرطي!
النارُ تتسعُ لكنها تخفتُ قليلاً، فها هم جمعٌ مضيءٌ من أبناء الصحابة الكبار يدخل مصر وينضم لجيشها المندفع في الصحراء نحو طرابلس وتونس، والناسُ تنضمُّ إليه، وأنت تستأجرُ لكَ غرفة لكي تراقب الوالي وتنتظر أخبار المعارك.
(الجهاد هنا يا إخوان!).
تأملْ هذا البلدَ الغني، حيث يتدفق كائنٌ مائي كأنه ثعبان عملاق وينفثُ الشجرَ والورودَ والعسلَ والثمر، وحيث الغيطان جنائن خضراء، وسحاباتُ الحمامِ تطيرُ مثل الغيم، ثم تجدُ الأكواخَ والبشرَ الغائصين في المياه والطينِ والروث، والأطفالَ الغابة من الأعوادِ في خرقٍ قذرة، والوالي وجماعته يمضون بسياطهم يملأون الخزائنَ ويمتعضون لقلةِ الدمِ وندرةِ المال الكثيف!
يمضي الفرسانُ وأبناءُ الصحابةِ المتألقين بالنور إلى كنسِ جند الروم وأتباعهم.
يسمعُ المجلسَ يتكلم:
ـــ تقاتل جمعُ المسلمين وجمعُ الرومِ طويلاً ولم يستطعْ أحدٌ هزيمة الآخر!
ـــ يقال بأن والينا عبدالله بن أبي سرح خافَ وجبن واختبأ لأن قائدَ الروم وضعَ جائزة كبيرة لقطعِ رأسه!

ـــ لكن عبدالله بن الزبير نظمَ الجيشَ العربي بطريقةٍ فاجأت العدو وسحقتهُ وهو خائر القوى وفي غفلةٍ واستراحة!
ها هو الجيشُ يعودُ وحشودٌ من الناسِ تستقبلُ أبناءَ الصحابة بحبٍّ، ففيهم الحسن والحسين، وها هو عبدالله بن أبي سرح يتباهى على طليعة الجنود!
وأنت تعودُ إلى غرفتك الصغيرة جائعاً، ولا تستطيع أن تنامَ، ثم تذهبُ للمسجد في هدأة الفجر لتصلي، وحشدُ العرب يتجمعُ ويخرجُ من بين الأزقة، بسطاء، نشطاء، ويلمّهم صوتٌ واحد، يُعجب الناس ويدفعهم للمجيء.
لم تكن تعجبك قلة اليهود في صحارى العرب، وانعزالهم، وعدم إحساسهم بالفيضانِ الإسلامي البشري، وأنت كرهتَ العزلة واندفعتْ، لم تجىء إلا حين ذهبَ الكبارُ وودتَ لو تكونُ بينهم، وتندفع معهم في سيلِ النور الأول، الآن بدأت أوساخُ الأرضِ تلتصقُ بالفيضان..
تسمع ثلة من الشباب تثرثرُ بعد أن انتهت الصلاة.
ـــ عثمان لا يصلح للخلافة.. شخصٌ ضعيفٌ وها هم يحاصرونه بأطماعهم وعائلتهم..
ـــ أنتم شباب قليلو التجربة ولا ينبغي أن ترفعوا أصواتكم بمثل هذا الشغب!
ـــ دعك أيها الكهلُ من هذا، فهو أمرٌ صعبُ المرتقى!
ـــ وأنت يا محمد بن أبي بكر، الأولى بكَ أن تكونَ مثل أبيك العظيم الرزين!
ـــ كفّ عن نصائحك نحن سنهجو هؤلاء وخاصة عثمان!
ـــ محمد بن حذيفة يقول هذا الكلام وهو الذي تربى في بيت عثمان ومنبت عظامه من خيره!
كاد الشابان أن يهجما على الكهل لكن عبدالله بن سبأ اندفعَ إليهما وأوقف التشاحن، ونظرَ للكهلِ بغيظ وصاح به:
ـــ لماذا لا تدافعُ عن الحقِ يا رجل؟!
ـــ من أنت لتندسَّ بيننا؟
دهش الشابان واقتربا منه. كانا تائهان في حشودِ الناس التي لا تأبه بكلامهما والآن هذا الرجل الغريب يغدو مثل صديق عزيز!

شبانُ قريش مأخوذون به. الشريدُ الطريدُ في بوادي العرب ومدنها يزرعُ في أرضٍ خصبة. أليس طينُ مصر خلاقاً؟

محمد بن أبي بكر نبتة خضراء سقاها الإلهُ. وهو مذهولٌ به. يقولُ:

ـــ يا عبدالله كنتَ في البصرة وطردكَ واليها عبدالله بن عامر فكيف يجرؤ؟

ثلة صغيرة عند أقدام النيل. كم رأت هذه المياه من فرائد التاريخ لكنها الآن تبصرُ شيئاً آخاذاً فريداً. من هو ذلك الوالي الذي يُسئلُ عنه؟ من هم أولئك اللصوص الذي أنضم بينهم لحظة؟ كلهم رمادٌ! ويبقى نورُكَ يتقدمُ..

يطالعونهُ مأخوذين وهو صامتٌ، يقول:

ـــ من هم اللصوصُ حقاً؟ أولئك الذين يأخذون ما سُرق منهم أم الذين كدسوا مالَ الناس في خزائنهم؟! مَنْ معاوية؟ مَنْ عثمان؟ من عبدالله بن أبي السرح؟ من أبن عامر؟ تسألني عن الرملِ الذي يلتصقُ بالأقدامِ السائرة إلى النور؟! نحن نبتٌ من الشعاع وما كل هؤلاء اللصوص سوى حشرات.. هل نجرمُ إذا فعصنا ذبابة أو بعوضة؟ أنت هنا تنظفُ المكانَ وتطهرُ الجوَ!

يسألون من هذا الرجل؟ لماذا يتخفى؟ لماذا يتسللُ في كلِ مكانٍ كشبحٍ أو روحٍ هائمة تبحثُ عن أجسادٍ تتقمصها وعن رؤى طفولية تحولها للبلوغ؟ يسألون كيفَ سافرتَ عبرَ كلِ هذه الصحارى؟ لا يعرفون كم ركبتَ في قوافل التجارِ، وكم أستأجرتَ حميراً وسرقتَ أبلاً، لا يحبُ أن يذكر كيف أندسَّ في كومِ الأوساخ ليحصلَ على رغيفٍ وقطعةِ لحمٍ، لا يريد أن يذكرَ كيف التحقَ باللصوصِ وصعاليكِ الصحراء، وكان لهُ في كلِ مدينةٍ أسم، وكيف أتحدَ بالليلِ فلم يظهرْ شيءٌ من جسدهِ، وأختبأ في نهاراتٍ كثيرة.

يهتفون:

ـــ قلْ لنا كيف عشتَ، كيف تنقلتَ، كيف صارَ لك كلُ هذا الفكر!

ـــ لا أعرفُ كيف عشتُ، كنتُ طيراً مرة، وشعاعاً من نور القمر، وملاكاً يحرسُ جثثَ القتلى في المعارك مرات.. من هم المؤمنون من هم الكفار؟ إنهم لا يعرفون.. هل تنطقُ بكلمةٍ ثم تتحول إلى طهر؟ هل تكفي الكلمات والصلوات الخادعة والصدقات الصغيرة البخيلة لتجعلك مؤمناً؟! من هم الكفار حقاً، أليس هم الذين أستولوا على ثروات الحياة وزعموا الإيمان؟ هذه الأشياء كلها لله وأعطاها كلَ الناس، فلماذا يريدون أخذها وحدهم؟ لا أريد أن أقولَ لكم كل كلامي حتى لا تحترقُ أجسادُكم بلهيبها.. أدعكمْ حتى تكبروا.. ليس بالجسمِ بل بالروحِ، الروحُ لا تعترفُ بالليلِ والنهار، ولا بنيرانِ الشمسِ وبردِ القمر، أنتم قبل زمنٍ لم تكونوا أبنائي وقد صرتم، ليس ثمةَ أسرة ولا ماء، بل برعشاتٌ خفية طاهرة غيرتكم في ومضةٍ، فصرنا عائلة من نور!

تكبرُ الحلقة، يهتفون:

ـــ لماذا لا تريدُ الحشودَ؟ لماذا تتسربُ بيننا مثل الضوء لا نعرفُ لك مكاناً ولا بيتاً ولا عائلة، تأتي وتختفي وتظهر، تصلي بيننا ثم تتوارى، لتظهر.. هل شبحٌ أنت أم شخصٌ حيٌ أم ملاك؟

يسألون كثيراً ويأكلون كثيراً وينامون كثيراً، ويريدون المجدَ! يهمسون بكلماتهِ خائفين، يندفعون لمعركةِ أم الصواري ويقبعون في السفنِ متناثرين، ويهزمُ غيرُهُم الرومَ الهاجمين الغزاة،

فيتذمرون، يحسدون عمرو بن العاص على ثروته وعبدالله بن أبي السرح على قصره وسلطانه المتزايد، ولا يفعلون شيئاً.. والناسُ تحبو كالقطط تلتقطُ عظامَ السمك..

ـــ هناك نورٌ في الأرض علينا أن نقتربَ منه، ثمة شعاع خافت الآن، لكنه سماءٌ ساطعة، الكثيرون عميانٌ لا يرون الشمسَ وهي تنيرُ في الظلام، نحن في الرمادِ الآن، غيرنا في الجمر، لماذا لا نشعلُ أرواحنَا كي تبصر؟ لماذا لا ننزعُ الجلودَ والخرقَ الرثة عن اعضائِنا لكي ندخلَ حديقة الله؟ أقولُ لكم إنكمْ بعدُ غير مؤمنين، علينا أن نسلمَ بالنورِ وندعَ هذه النعالَ الوسخة التي تقودنا للمستنقعات، هذا هو عبدالله بن أبي السرح الذي صار قائداً فذاً بفضلِ أجسادِ الشهداء وتضحياتِ أبناء الصحابة يستبيحُ مالَ الناس، وأنتم تلبسون الثيابَ وتذهبون للأعيادِ البهيجة وسط السوق القذر، وتصدقون بأن ثمة أميراً للمؤمنين وليس أميراً لسوق الخز والديباج.. تعالوا لأريكم الأميرَ الفقير الذي يبذلُ جسدَهُ للشموعِ وللدموع، هناك العابدُ المجاهدُ النورُ ولا أريدُ أن أقولَ لكم ما هي هذه الأنوار المشعشة فأنتم أطفالٌ بعد في مدرسةِ الحق..

يتساءلون، يتعجبون:

ـــ تعال حدثنا كيف لجأت إلى حكيم بن جبلة العبدي في البصرة الذي كان يغيرُ في فارس على أهل الذمة ويسلبهم؟!

ـــ كلما كنتُ أرى جمرةً صغيرة في كومةِ القطن الوسخة نفختُ فيها. كانت تلك ثلة من اللصوص المتحضرين والصعاليك القدامى، كنتُ أحدثهم عن المالِ المسروق، وتقسيمهِ وكيف كان السابقون يضحّون.. فخافَ الوالي وزعمَ أنني أفتنُ الناسَ. بل نحن نصنعُ الفتنَ الجميلة المشعة التي تجعلُ الناسَ التي أدمنتْ رائحة المزابل تحنّ للحدائق!

يحاولون معرفة بيته فلا يجدونه. عبدالله بن أبي السرح يتحسّسُ الجمراتِ التي تشتعلُ. الجماعة الصغيرة تصلي معاً، وتأكلُ معاً، وتنسجُ خيوطَ الكلام. عندما هجم جنودُ ابن أبي السرح لم يجدوك. عمرو بن العاص بعث برسائل لأصحابهِ المصريين فتفجرت ضجة كبيرة لدى الناس فاهتزت السلطة، فحمداً لله!

تقول:

ـــ هذه هي فرصتنا. كان صاحبُ الدهاء ينزلُ للناس، ويتقربُ إليهم ويعطيهم ويخففُ عنهم، أما عبدالله بن أبي السرح فجاهلٌ وراح يستعملُ السياطَ لانتزاع الخراج!

قال محمد بن أبي بكر:

ـــ لقد تشاجرتُ معه بشأنِ ذلك فهددني بالحبس!

ـــ صارت دولة الإسلام تجبي كدولةِ كسرى!

عثمان لا يتجولُ في الطرق..
عثمان لا يحملُ درة ليضربَ الفاسدين..
بل يؤوي الفقراءَ إلى دورٍ جديدة، ويطعمُ المشردين من الأعراب، وجبالُ الفضة والذهب المتدفقة بدون عصي يوزعها على الناس..
الدكاكينُ ملأى بالفواكهِ والقمح والطيور.
(لا أعرفُ أن أرفعَ السوطَ أو أضربَ بكفي..
من رأى عهداً للحب والحنو والمساعدة مثل عهدي؟!
اسألوا الأباطرة الذين رحلوا ووسعوا المقابر، اسألوا الغاضبين الذين قُتلوا..!
انظروا العاصمة التي تخلو من الحرس والشرطة والمشعوذين والمخبرين والشحاذين!
مددتُ يدي فظهرت الآبارُ، نثرتُ النقودَ كما لو كانت حَباً أو لوزاً كي تزهرَ الرحمة، حميتُ مراعي الفقراء، انظروا للحشود التي تركضُ إليّ في الحج.. أنظروا ثمار المحبة تتجلى في هؤلاء الأغراب الذين صرتُ لهم الملاذ من الطوفان والقحط!
لكن بعضَ النفوس الصغيرة لا تحبني، حين يسقط خاتمُ النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان في إصبعي في البئر تحولهُ إلى مصيبة، وتنشرُ كلامَ الكهانِ شؤماً غريباً جاهلياً ؛ يزعمون ضاع الخاتم فضاع الإسلام!.. يريدون لكلّ هؤلاءِ الفقراء أن يزهدوا في الدنيا بل لا بد أن يفرحوا ويأكلوا في الموائد العامرة، وينتشوا بالحياة!
الثلة الصغيرة تتحركُ وتندسُّ بين الآهات وصرخاتِ الأطفال، تحولُ كلَّ خيرٍ إلى قلقٍ وخوف، وتحقدُ على الأمراء الكبار والأغنياء رغم أنهم يعيشون في سعة! يذهلون ويصرخون لكنني أحملُ قوافلَ الدقيق للجياع والقبائل التائهة في البيداء، والمالُ الكثيفُ الذي يجلبهُ الخراجُ أحولهُ إلى عمارٍ للأرض، لكن الثلة لا تريدُ العيشَ الهانئ..
أريدُ أن أسمعَ عن شغبٍ أو فتنة للناس، بل أراهم سعداء!).
هنا عثمان بن عفان رجلٌ كهلٌ أدمنَ الحبَّ، وحين يُجلدُ قريبهُ الوليدُ بن عتبة لأنه شرب الخمرة وهو والٍ، يتوارى عن منظره المؤلم، ويشعرُ بالدموع تترقرقُ في عينيه! إذا كان وزع بعض أمواله حين بدأ الإسلام فهو يفض الخزائن لسعادة الناس، ماذا يريدون أكثر؟
الفقراءُ سعداء لكن بعضَ كبار التجار يملأهم الحسدُ ويثيرون الفتن!
الكهلُ الحاكمُ الآمر لا يعرفُ الكراهية ولا الغضبَ، والحكمُ يريدُ سوطاً وحبساً، الحكمُ لا يحبّ الوجهَ البشوش، واليدَ ذات العطاء، بل يريدُ سيوفاً وطواحينَ لطحنِ العظام كما يزعمون!
(هذا هو طبعي، لم أعرف القسوة..
الحكمُ يتحولُ إلى مستنقعٍ من دم..
وأنا أريدُ حديقةً غناءَ يضّحكُ فيها الصغار!
أحببتُ الوليد بن عتبة كولدي، وساح في البلاد غزواً وأعطى الناس الخير، لكنه كان سكيراً. لم يحفظ هيبة الخلافة. أعطيته حبي وجزاني كراهية ومزق ثوبي!..

أما معاوية الذي يكرهونه فأظلَّ الناسَ بالحكمة والرفق والعدل.. من يستحق أن أوسع حكمه غير هذا الرجل؟
أين يوجد الهدوء والسكينة والرقي إلا في ولايته؟!
هل يريدونني أن أفعلَ ذلك لولاةِ الكوفة المتقلبين؟
يأتي إليَّ رجلٌ من الكوفة ويقول ألحق القرآنَ، كلّ مدينةٍ تقرأهُ بشكلٍ، كلُّ جماعةٍ تزعمُ أن قراءتها هي الأفضل، يلتهبُ جسدي بالنار، ولا أنام، منذ الصباح الباكر أستدعي كبارَ الصحابة وأقولُ لهم ماذا يجري: كتابُ الأمة صارَ كتباً! كلهم يتفقون مع رأيي: ليكن كتاباً واحداً كما نحن أمة واحدة!
عملٌ في الليلِ والنهار، عسبُ النخيل تظهرُ، الجلودُ تأتي من زوجاتِ النبي، حشدُ القراء والحفظة والكتاب يجتمعُ في كلّ آن، سهرٌ مخيفٌ، واستشاراتٌ على الكلمات، والصحابة الكبارُ يرون الكتابَ، وأنا لا أكاد أنامَ، قلَّ الأكلُ وانعدمت الشهية، حتى ظهرتْ نسخُ القرآن، القرآنُ الموحَّد الموحِّد وانطلقتْ النسخُ لكلّ الآفاق، حينئذٍ استرحتُ كما لم أسترحْ من غزوةٍ أو من ربحِ تجارةٍ ضخمة، نمتُ ونهضتُ فرحاً بالحياة!
أي لقبٍ هذا الذي أشاعه الناس: قرآن عثمان، بل قولوا قرآن الله ونسخة عثمان!
حينذاك يقولُ لي بعضهم إن عمرو بن العاص يهجوك فأقول دعوه يهجو، صدري واسع!
آخرون يذمّون توسيعي على أهل الحجاز وامتلاكهم البساتين في العراق فأقول دعوهم يذمون فسوف أوسعُ عليهم أيضاً!
عشقي للحياةِ يتزايد، الشيخُ الذي في كياني يهفو للمتع، صاحبي تزوجَ امرأةً عربية ولها أختٌ هي الجمال والشباب، فيهفو قلبي لها، فيتهادى جملها طويلاً في الرمال العربية حتى يصل..
قالوا لها الخليفة رجلٌ كهلٌ ولا يريدك إلا برضاك، إذا قبلتِ به يتزوجك؟
وصرختُ بل قولوا لها لا تتزوجيه حتى تريه! وها هي الآن تقبلُ بالشيخ والشيخُ يسعدُ بها!
فأي حياة جميلة تقية نقية هذه؟
أصبحت حياتي الآن مرتبطة بنائلة، فأي زهرة وأي عقل!).

الفصل السادس

للمدينة بهاءٌ وثروة وجلّ الناس مخطوفٌ للّذة والأنس، من يقول بأن هذه المدينة شهدت حصارَ الخندق وهجومَ ملأ قريش؟! من يستطيع أن يرى الآن شحاذاً متنسكاً أو زاهداً في ملذات الدنيا؟ ولمن كل هذا الغناء والطرب والدور البهية التي تملأ البطاح؟!
يحدقُ الأشتر في حارسهِ الضخم الذي لا يدعهُ يغيبُ عن نظره. هذا البدوي المجتر الذي لا يكاد أن يعرفَ شيئاً عن الإسلام!
صاحبهُ صعصعة أعلن التوبة عن ذم عثمان ومعاوية. صرخ به:
ـــ تعبتُ يا أشتر.. رحلة مخيفة أكلت أقدامنا وما بلّت أرواحنا بكلمةٍ أو هداية!
ـــ ماذا تقصد؟ أراك تتقلبُ في نومك وتطيلُ صلواتك؟
ـــ يا أخي.. أحنّ لزوجتي وعيالي.. ماذا جنينا من كل هذا الاضطرابِ والسفر القاهر وتحدي ملأ قريش؟ لديهم كلّ أسبابِ القوة وماذا لدينا..؟! ثلٌ من الأعراب النهمين للملذات ولو جاءوا إلى السلطان لشووا أجسادنا!
هو أيضاً كان يتأمل كل هذه الرحلة النارية، كان في البدءِ يرى البرية خالية من الأشياء، وكرهه العنيف لذوي السلطان يملأ نفسه، واندفاعه في سيلِ الألمِ والغضبِ يمتلكُ روحَهُ، وإذا الدنيا مختلفة، والقهر له بنيانٌ راسخ، حشودٌ من الناسِ تصفقُ وتنحني، وسيوفٌ كثيفة تقطعُ الرقابَ، ومطابقٌ تحت الأرض من عهد الروم تعودُ للعمل في لحم المسلمين!
وما أوسع الكذب والنفاق والخسة، حتى راح يحنّ للعودةِ إلى بيتهِ الصغير، وأن يغدو راعياً لغنم في بريةٍ واسعةٍ ليس بينه وبين الله سوى الزرقة والهواء!
يصرخُ بصاحبه:
ـــ لماذا تضعف؟ بدأنا معاً.. كوّنا تلة من المشاعر المشتركة والثقة، كنتُ أجدُ في صخبك نفسي، وكنتَ تداويني من شوكِ البرية السامّ، كنتَ تتكلمُ عني إذا عيَّ لساني، والآن تتركني.. لم يكن معي سوى هؤلاء الأعراب الذين خضعوا لنعلِ الوليد بن خالد.. وذهلتُ كيف انقلبوا يا أخي من زئيرِ الأسد إلى مواءِ القطط!
ـــ الشمسُ الحارقة والجوعُ والأخطرُ رؤية الثراء العريض الذي يتقلبُ فيه الأمويون والذي لحسوا بعضَ زبدتهِ وعسلهِ فهاموا بمعذبيهم وأحبوا جلاديهم! أصحابنا الذين خرجنا معاً، بصدورٍ متآخيةٍ متراصة ندفئُ بعضنا، صارتْ لهم كلماتٌ أخرى، وخذلونا ونحن تحت نعلِ الوليد بن خالد ونحن معرضون لسياطِ جنوده!
ـــ أهذا هو الذي أطاحَ غضبك وزعزعَ نفسك؟!
ـــ أناسٌ كثيرون عندما يتحولون من الهدوء ودفءِ البيوتِ وشبع الزوجات إلى زمهريرِ الشتاءِ في الصحراءِ وقرصِ السياط، تتبدلُ كلماتُهم ويتلوّن إيمانُهم.. ليس ثمة شيء مثل التجربة..
ـــ آه.. التجربة لقد ملأتنا معاً لكنك تودعني الآن وتذهبُ للانزواءِ والعبادة وأنا لا أزال أمتشقُ سيفي!
ـــ والله إنني خائف عليك يا أشتر.. هذا الشبابُ وهذه الفتوة والقوة والبهاء تذهبُ سدى، لبشرٍ لا يستحقون تضحية.. تعال معي لكي تؤنسني وننزوي عن هذا النهرِ الجاري بجثثهِ وأطماعهِ!

ـــ ليس لك هذا. إن روحي مليئة بالضنى، ونفسي تشاغبني أن أمضي ولو احترقتُ بلهيبِ هذه الأشياء..
ـــ لن تفيدك شيئاً!
ـــ وأنا لا أريد فائدة لي بل أن أعملَ خيراً ما، ولا أكون مثل هذا الجماد والصخر الذي نمرُّ بهِ..
الحارسُ يحدقُ به بفظاظةٍ ويصيحُ:
ـــ ما بالك تهذي يا رجلُ، تعال من هنا دارُ الخلافة!
كبر البناءُ وصغرت النفوسُ. ومروان بن الحكم يتطلعُ فيه بكراهيةٍ:
ـــ أنت الأشتر النخعي؟
ـــ نعم يا مروان!
ـــ أنت الذي تقودُ جماعةَ السوءِ التي تتقولُ على أمير المؤمنين؟
ـــ لم نتقول لكننا كنا نقولُ الحقّ!
ـــ أي حقٍ في التشهير بأناس فاقوكم بلاءً وجهاداً وما كنتم سوى نكرات!
ـــ لا نذمّ جهادهم ولا..
ـــ هل شهدت بدراً أو فتح مكة أو نسخت قرآناً..؟!
ـــ لا أظن أنك قمت بذلك أيضاً!
ـــ تتحداني يا ابن البدوية؟! خذه عن وجهي يا حارس!

٢

هدأتْ ضجةٌ ما، لم يكن لمشاغبي الكوفة شيءٌ روحيّ عميقٌ، بل هي سفاسفُ الدنيا، التقطوا بضع دراهم وضربوا ثم انطأفوا.
توقف عثمان عن القراءة.
لو كانت لديه قدرة أن يزورَ تلك البلدان ويتحدثَ مع الناس، ويرى حوائجهم لفعل، لكنه تعب..
يدخل عليه مروان بهدوء. يقول:
ـــ جيء بالأشتر النخعي يا أمير المؤمنين وهو لا يزالُ على غطرستِهِ!
رفع عثمان رأسَهُ بشوقٍ غريب. شعرَ بحاجتهِ لأن يقتربَ من هؤلاء الذين يكرهونه. أن يطفئ النيرانَ في صدورهم.
ـــ أدخلهُ، ماذا تنتظر!
ـــ إنه ليس هنا، وضعته في الحجرة.. في تلك.. المضافة!
حدق فيه عثمان منزعجاً:
ـــ ماذا بك تضع الرجل في ذلك الحبس، أحضره فوراً!
خرج مروان وتحدث مع الحارس. ومضى الرجل بتثاقل إلى السجين.
جثم الأشتر في مكانٍ معتمٍ ورطبٍ وليس سوى بساط، ووضعَ رأسَهُ على الجدارِ وحاولَ أن ينامَ، لكن لا نومَ، بهِ رغبة عارمة في البكاء، كان صدرهُ يهتز ومياهٌ حارة تقتربُ من عينيه: ماذا حدث؟ لماذا هذا؟ أواصر تتفكك، واليدُ التي كانت مع الصديق تنسحبُ وتتحولُ إلى خنجرٍ يغوصُ في البطن! والخليفة الذي كان الرحمة للناس يتحول إلى سجّان؟!
مضى الليلُ ببطء، وكانت المعدة تمزقهُ، لو كانت لديه كسرة من خبز! أو إناء مليء باللبن! أيجرونه طوال هذه الصحراء الرهيبة ثم يتركونه يتمزق هنا؟
غفا وحلمَ بنوقٍ تمضي في البرية، وبنارٍ تشتعلُ تحت الجزور، وشم رائحة غذاء طيب، ثم انتزعهُ صعصعةً من السفرةِ وما تكادُ اللقمة أن تصلَ إلى فمهِ، وقال له: انتبه بها أفاعٍ! وانتفضَ وهو يتألمُ وكانت القافلة تحترقُ!
انتبه على صوت الحارس ويده الثقيلة تداعبُ جسدَهُ!
ـــ قمْ يا رجل.. أميرُ المؤمنين يريدُ أن يراك!
كانت أرجله ثقيلة على الأرض وفوق السلّم، وصاح: اصمدْ يا جسم!
حين رأى الخليفة دهش، فالرجلُ نهضَ إليه، وكاد أن يحضنهُ..
ـــ ماذا بك يا ولدي.. أتشكو من شيء؟!
ـــ ...
ـــ ما هذا الغبار وأي سحنة متعبة!
ـــ لم أتناول.. طعاماً.. يا.. أمير..
تطلع في مروان والحارس بغضب:
ـــ ماذا تفعلان.. أحضر يا هذا طعاماً.. اسمح لي يا ولدي لم أدر أنك في مثل هذا المكان، لو كنتُ أدري لاستضفتك.. هذا أقل ما أفعله.. هيا.... ألا ترى الرجلَ في جوعٍ شديد!

تطلع إليه الأشتر بدهشة، ثمة نقطة من ماءٍ باردٍ نزلتْ في جوفه، كانت أشهى من الخبزِ والبيضِ والزيتون التي راحت تملأ معدته، كانت أسربة الصحراء تحومُ حوله، والأسئلة المزعجة والصرخات الرهيبة، كلها تترنحُ عند حضنِ هذا الكهلِ الغريب البسيط الحنون!

ـــ ماذا بك؟ لم أنت صامت؟ ماذا فعلوا لكم..؟

ماذا يقولُ له؟ أيحدثهُ عن شغبِ الأرض التي أعطيت بغير حقٍّ، أم عن كلمة سعيد بن العاص، أم عن غضب معاوية وأقواله، أم عن الحيرة والحزن والألم وتقطّع روابط الأخوة؟

ـــ أنتم أهل الكوفة شغبتم كثيراً وحاولت أن أودبكم..

ـــ لكن هل تعرف كيف أدبونا؟!

ـــ ليست لدي سجون ولا شرطة وأنتم شتمتونني.. ماذا أفعل؟

ـــ ونجرُّ ونسحب في البيداء الشاسعة؟

ـــ يا لله.. ألم يحملوكم على خيول وإبل؟!!

ـــ بل مشاة نذوق العطش والحر والذل!

ـــ يا لهم من قساة.. والله إنني لم أكن أدري..

نهض بأسى. كلماته تتحولُ في مكانٍ آخر إلى سياط. رحمتهُ تصير حقلاً من النار، براءته تغدو مصيدة للأطفال!

ـــ إنك خليفة المسلمين..

ـــ من معي..؟ أي جيش من الصادقين والرحماء لدي.. الناس تتدفق حولي من أجل الفضة والدنانير.. تعال!

سار به نحو خزانة وفتحها وقال:

ـــ خذْ ما تريد!

تطلع في جبل من الذهب والقطع المتلألئة والأساور والتيجان والعقود.

ـــ ماذا فعلتُ لآخذ شيئاً من بيت المال؟

ـــ مقابل كلّ ما فعلوه بك بدونِ وجهِ حق!

كان رأسه يدور من امتلاء المعدة وجفاف الحلق ورعشة الأطراف. كان ثمة هزة تخضه، ويكاد أن يبكي!

ـــ والله يا ولدي إنني لم أدر أنهم سيفعلون مثل ذلك. أردت أن ينتهي ذلك النزاع من الكوفة وتكفّوا عن الشجار..

وسكت حائراً تعباً.

٣

هناك أشياء باقية من عهدِ الجهاد الأول. عليّ بن أبي طالب وأبناؤه، وصحابة فضلاء لا يزالون يتحدثون ويتعففون. لكن أغلبية الناس لاهية في الخير المتدفق من الأمصار. أبوابٌ انفتحت على مصاريعها للعائلات الكبيرة..

لكن الأشتر رأى عثمان وطيبته، وهو بعد حائر متقلب في شأنه، وشأن المتحولات الغريبة، يستعيدُ صورة عمر بن الخطاب، فيدهشُ للفوارق بين الرجلين والزمنين، وهي كلها سنوات معدودات..

الآن هو يستعدّ للسفر والعودة للكوفة ويسمعُ أحاديثَ الناس في المجالس فيدهشُ، هذا مجلسُ تاجرٍ قرشي تنهالُ فيه المدائحُ لعثمان، ذاك مجلس لآل علي تتفجر فيه الانتقادات حادة له ولأهله..

فجأة يأتي رجلٌ من مصر يصرخ في المسجد:

ـــ يا جماعة الإسلام أمير المؤمنين أعطى أبن ابي السرح خمس غنائم حرب أفريقيا..!

اصطخبت الجماعة، نهضَ رجلٌ آخر وصاح:

ـــ إن الخليفة في كل يوم ينقصُ من سنة الغابرين حتى سيغدو كل شيء له ولأهله!

تدفقت التعليقاتُ من كل حدبٍ وصوب:

ـــ أبي السرح هذا منافق!

ـــ يا جماعة الخير عليكم أن تسألوا أمير المؤمنين قبل تدلوا بهذه الأقوال العنيفة الحادة المفرقة للجماعة!

ـــ لقد وسّع والله الرزق للناس كافة فكيف لا يوسعه لأهله وأقربائه!

ـــ نعم، لكن ليس من بيت المال!

ـــ اسألوه ربما لديه مبرر!

ونهض الرجلُ المسافر مرة أخرى وصرخ:

ـــ كذلك اشترى مروان بن الحكم جزءاً من هذه الغنائم!

انفجرت الصيحاتُ ثانية:

ـــ لا! لم تعدْ سوى عثمانية أموية!

ـــ أخذوا التجارة وبيتَ المال كذلك وضاعت الحقوق!

ـــ لماذا لا نمضي لعلي بن أبي طالب يكلمهُ ويردعه!

ـــ لماذا لا نذهب له بأنفسنا!

ـــ هيا قوموا!

تعالت الأصواتُ وتشكّل سيلٌ صغيرٌ من البشر، ويحدق آخرون في هذا الركبِ ويسمعون كلماتٍ حادة صاعقة متنافرة متناثرة تطيرُ في الهواء مثل الشرر، فيوصلونها لآخرين، هم كذلك يفجرونها في أسماعٍ آخرى، فينضمّ أناسٌ بتوترٍ للجمع، ويدهشُ الأشتر من سهولةِ تطاير الحمم، وسرعة تصديق الناس لأي شيء، وهو أيضاً غاضب ومتألم، ومذهول للوجوه المتعددة

المتناقضة للخليفة، ويتساءلُ بحدة: كيف ولّى ابن أبي السرح هذا؟ وكيف سمح لمروان أن يأخذ أموالاً؟ هل لديه قدرة على الحكم.. هذا الكهلُ المسالمُ الواقعُ بين لبؤات؟
هذا هو الركبُ يصل، ويثير غباراً عند دار الخلافة، والدارُ ليس فيها شرطة تردع أو حراس يوقفون هذا التدفق، لكن الركبَ نفسَهُ هدأ، وراح كبارُ الناس يتوقفون مستغربين كيف اندفعوا وأثاروا كل هذا الصخب ووصلوا إلى دار الحكم وخجلوا أن يمضوا للخليفة ويسألوه جميعاً بمثل هذا التدفق الغريب!
قال أحدهم:
ـــ فليذهب بضعة أشخاص ويسألوا أمير المؤمنين..
ـــ لماذا البعض؟
ـــ ألم نقل إنه من الأفضل أن نكلم علياً بن أبي طالب؟
ـــ اتفقوا يا ناس، وقفتكم هذه مثيرة للفتنة!
ذهب بضعة أشخاص، وانتظر الجمع خارجاً، وبدأ الغروبُ يقترب، وظهرت الثلة بعد حين، وكانت وجوههم متغيرة شبه فرحة، قال أحدهم:
ـــ الخليفة يقول بأنه باع غنائمَ لهذين الرجلين وقبضَ منهما ثمنها وهي ليست هدايا أبداً!
تلاشى غيظ الجمع فجأة!

تأمل معاوية من نافذة قصرهِ الضوءَ المتسللَ إلى ظلمةِ الكونِ ببطءٍ شديد.
الجبالُ لا تتحركُ، والمدينة غافية وأحجارُها جامدة ربما إلى الأبد، فلماذا لا يتدفقُ الزمنُ بقوةٍ؟
منذ سنين كثيرة وهو يسبحُ في هذا النهرِ اليومي المتدفق بتخثر وتعثر في أرض الحياة، في كلِّ بضع سنين يقفزُ قفزة كبيرة مذهلة، ثم تعودُ الأشياءُ إلى طبيعتها، بضعة أموال، سلطة أكبر، حشودٌ لامرئية تكونُ له، ولكن كل هذا معلقٌ بشعرةٍ في المدينة، قد تهتزُّ رجلُ الخليفةِ ويسقطُ فإذا الجمعُ هناك يقررُ في لحظةٍ تصعيدَ عليٍّ ووضعَهُ هو في قبر..
في أي لحظةٍ قد يختنقُ، أو يحتضنُ زوجتَهُ الشابة بصورةٍ حادة، أو ينفجرُ مصرانٌ ما، فإذا كلُّ عالمِهِ قد انهار!
سنواتٌ من الزحفِ مع هؤلاءِ البدو في الحروبِ والأسفار، وثمة صدفٌ غريبةٌ تضعهُ في الشام، وأن يكون أخاً ليزيد وأن يموتَ بالطاعون أخوه ويبقى هو، ويصعدَ بصورةٍ لم يصدقها هو نفسه، ويأتي عثمان دون غيره، ويزدادُ صعودُهُ حتى لم يبق أحدٌ أمامه!
الآن عليّ هو خصمهُ، هو منافسهُ العنيد، الذي لا يتركُ مناسبة دون أن يخوّفَ الناسَ من سلطتِهِ: (حاكم الشام صار أكبر من الخليفة)، (أيها الناس انتبهوا لقيصر دمشق!)، (أخطاء معاويةَ أكثر من أخطاءِ عثمان أيها المسلمون!)..
منشارٌ يقطعُ روحَهُ في كلّ لحظةٍ، خطرٌ كامنٌ رهيبٌ قد يتحول إلى عاصفةٍ تجري نحوه بسرعةٍ كسرعةِ صعوده!
(يا إلهي إن كلَّ شيءٍ سوف يضيع! وطابورُ أهلِ الكوفة المرحلين المشردين تحولَ إلى فقاعةٍ! ذابوا كلهم وعادوا لرعي الغنم والغزو والصلوات والكلام الفاتر! وعادت السكينة تظللُ الدولة التي تتحولُ إلى خيولٍ عاصفةٍ على الحدودِ وتغدو ماشية وغنماً في مدنها..).
(هذا هو الليلُ يمضي فهل تأتي القمة؟ هل يمكن أن أمشي إليها كما مشيتُ إلى قمة دمشق، متحصناً وراء هذه الجبال والجدران العالية والحشود المدربة مثل الذئاب؟).
مضى الليلُ وحلَّ النهارُ، وجاءَ الغداءُ، وامتلأت البطونُ، ولا خبرَ من المدينةِ، حلت الظلمةُ ثانية، واشتعلت المجالسُ بالقصصِ والأشعار، وازدانت السماءُ بالنجومِ وظهر نفسُ القمرِ نفسه الذي ظهرَ مراراً وتكراراً، وليس معهُ خبرٌ جديدٌ، أو دورة حياة مشتعلة، وجاءَ البرد نفسه والنوم..
قال لهُ الحاجبُ:
ـــ سيدي كادتْ أن تحدثَ فتنةٌ في المدينة..
ـــ وبعد.. ماذا حدث؟!
ـــ لا شيءَ، هدأ الناسُ، ولم تؤدِّ صرخاتُ الرجلِ إلى أمرٍ خطر..
ـــ ألم يتدخلْ أحدٌ من كبار أهلها؟
ـــ كان الأشتر هناك لكن الغريب أنه صار متعاطفاً مع عثمان!
(ألم أقلْ لك إن الزمنَ يدبّ دبيباً مزعجاً؟ وأخبارُ المدينةِ تصلُ بعد أيامٍ وكلّ لحظةٍ هامة، لحظة قد تصعدُ سلطاناً وقد تميدُ بآخر!

صار حكمي كله يقفُ على كفّ عفريت! وكلّ ما فعلهُ أبي وفعلهُ أخي يزيد وفعلتهُ قد تذروهُ رياحُ السياسةِ الهوجاءِ المتقلبة كالصحراءِ في لحظة!
حين يصعد عليٌّ إلى الحكم فقد يتركني في أحسن الحالات لكنه متى سوف يموت؟ وقد يعيشُ طويلاً ويورثها لأحد أبنائه، وحينئذٍ يكونُ مصيرُ هذا الملك العريض كله إلى الهباء!
اشتغلي يا سرعة الزمن، وأنت أيتها المؤامرات الطاحنة لا تتوقفي عن إنضاجِ تحولاتك العاصفة، فلا شهية لدي للحم، أو لقمحٍ مليءٍ بالدجاج، بل روحي كلها في هذا السلطانَ، في هذا الكرسي الغريبِ الرهيبِ الذي يجعلني ويجعل سلالتي من بعدي في ذروةِ الزمن والبشر!).

٥

في ظلمة زقاقٍ راحا يمشيان بحذرٍ شديد، يتلفتان وراءهما ثم ينعطفان إلى دربٍ شديد الضيق والهواءُ فيه خانق، ويدقان باباً لا يكاد يبين. وقفا بعض الوقت، ثم انفتح وأطل شبحٌ ودعاهما للدخول.

يشعران بأنهما يدخلان سراديب التاريخ الغامضة، حيث تُحبك أشد المؤامرات تشويقاً وإثارة، وتغدو غرفُ الأسرارِ المتوارية أقوى من القصور، وأنهما صارا ذاتين هامتين في هذه الكومة من النفايات البشرية.

محمد بن حذيفة هادئ ومحمد بن أبي بكر متوهج وفرح بالظلام والنور الضئيل وبوجه عبدالله بن سبأ العظمي الصلد الصامت، الذي غدا لهما كأنه مرسل جديد.

ـــ إذن لقد تم استدعاؤكم من جانب ابن أبي السرح الذي سرح في خيرات مصر!

ترددَ صمتٌ غريب متوتر، راح عبدالله يحدقُ فيهما بدهشة:

ـــ قولا ماذا حدث!

هتف محمد بن حذيفة:

ـــ كان يريدُ القبضَ..

ـــ أخفض صوتك!

ـــ كان يهدّدنا ويتوعدنا ويريدنا أن نبلغ عن مكانك!

ـــ وبماذا أجبتما؟

ـــ قلنا له نحن لا نعرفهُ ولا نعرفُ مكانهُ!

ـــ ماذا يعرفُ عني؟

ـــ زعم أنك تؤججُ الفتنة..

كان ابن حذيفة يتكلمُ بقوة، وعبدالله يتطلع في الشاب الآخر، الذي ران عليه الصمتُ فجأة. فسأله عن ومضة التفكير الغريبة التي طافت بعقله.

لم يكن ثمة أثاث ولا زجاجات ولا مياه منعشة، كان الحجرُ الكالحُ يتكشفُ عن ذاته المريعة، ويبدو أن ثمة أنصالاً مرت من هنا، وخفافيشَ وعقاربَ شبعتْ موتاً، لكن التاريخ لم يتغير كثيراً..

قال ولد أبي بكر بحيرة في البدء:

ـــ ... يا.. عبدالله.. ابن أبي السرح ليس مثلما نقول عنه، هو لا يعيش متبطراً في قصر منيف، هو رجلٌ دمث ولديه بيت جيد لكن ليس فيه غطرسة الملوك.. وكما تعرف فهو مقاتلٌ كبيرٌ وصبورٌ.. وأغلب ما نشيعه.. أو أغلب ما يتناقل من الكلام ليس.. دقيقاً عنه..

صمت الآخران وبدت أصابع عبدالله ترتعش.

ـــ وحين أدخلنا عليه اندفع إلينا محيياً، ثم تحدث عنك. سأل: ماذا يريد هذا الرجل الجديد على الإسلام؟ إنه يتنقلُ مثل الطائر الأسود حاملاً أخبار الضحايا. ولماذا يتخفى؟ هل يدبرُ شيئاً؟ لا بد أن تقولا عن مكانه كي.. نعرف ماذا يريد ولماذا يبثّ كلّ هذا الكلام السموم؟

حدثَ صمتٌ مخيفٌ، ونهضَ ابن سبأ مثل شبح انغرزتْ فيه مدية، وصار مثل عباءة معلقة، قال بهمسٍ حادّ:

ـــ أرى أنكما تأثرتما بكلامه!

كان صمتهما مقلقاً. ماذا سيفعلان؟ هل تسرب معهما عسسٌ ما ولعلّهما يحفران في عقلهما خريطة المكان؟ ما أكثر الشكوك في الظلام!

قال:

ـــ المسيح عليه السلام تم تسليمه بثلاثين قطعة من الفضة، فكم ثمنكما؟ أنتما من أبناءِ عليةِ القوم، من قريش، من حوتِ البحار الذي راح يلتهمُ الناسَ في الصحراء والمدن، لكنني لا أقيم وزناً لحياتي.. وسوف تطلبان ولاية أو تصيران تاجرين كبيرين!

قال ابن أبي بكر:

ـــ إني لا اهتمّ بذلك لكنني أقولُ بأن كلامَنا كله لم ينفذ في لحم بل هو يطرق عظماً صلداً، وعلينا أن نبحثَ عن ذلك اللحم.. الطري.. الهش الذي يتمزق بسهولة!

ـــ أنتما لا تسمعان الكلام! لا يهمنا أن يكون أو يقول، بل ما يهم ما نقوله نحن، نحن.. انشرا ما نقول، أنتما تضيّعان الزمنَ بالتردد والحيرة.. لتكن كلماتنا مثل السيف القاطع لا أن تكون وقوقة دجاج قبل الذبح. انزعا هذه الملابس الحريرية القرشية وانزلا في الأسواق بثوبٍ مرقعٍ وجلدٍ يابس، أمامنا مهماتٌ تخرّ لها الجبالُ ساجدة!

ـــ الرجل عاملنا في بيتهِ باحترام..

ـــ ونحن لو لدينا القدرة لذبحناه! هي حربٌ لا حفلة. هؤلاء الطغاة نحن نتجهُ لقطعِ رقابِهم، أفهمتما؟!

الفصل السابع

١

مدينة وراء الرمل، تظهرُ رؤوسُ نخيلِها المتناثرات وسقوفُ بيوتِها البيضاء، كأنها تلويحة للغريبِ الطريدِ التعبِ.
كم لقي الأشتر من الثعابين وبنات آوى الجائعة، والقوافلُ تمضي للرمانِ والفضةِ، وهو يتقلبُ على الرملِ في عمقِ الليل يطالعُ إلى أين تقودهُ النجومُ، ورؤوسُ المسافرين تتقاربُ، والرسائلُ الغامضة تتلاحقُ في كلّ الجهات، والذئابُ تشمُّ قلوبَهم، والحشودُ التي تتجمعُ على الودّ تفترقُ على الحذرِ والخوف!
أناسٌ يأتون من وراءِ النهر، وآخرون من كثبانِ أفريقيا، يتبادلون الزادَ والحكايات، وثمة رجالٌ غامضون يخلطون الأخبارَ بالمواجع.
يتقلبُ رأسُ الأشتر فزعاً من بين الأفواه:
ـــ لا تصلحُ هذه الخلافة إلا لقرشي حازم!
ـــ عثمان ضعيفٌ وآن لهُ أن يرحل!
ـــ ألم يطل المقامُ بهذا العجوز على صدورِ المسلمين!
ـــ ألم تعرفوا أنه أنقصَ الفيءَ للرجال والنساء!
ـــ سعيد ابن العاص وراء كل جور يا أهل الكوفة والأمصار!
ينهضُ مع غبارِ الصباح، لا يبلّ ريقَهُ الهواءُ المنعشُ القادمُ من نخيلِ العراق، ويسألُ كلّ الجهاتِ عن أي عثمان رآهُ في المدينة، ولماذا تفلتُ خيوطُ الحقيقةِ من بينَ أصابعهِ، ويروحُ يأكلُ كبدَهُ ويشعرُ بمرارةٍ فظيعةٍ في فمه..
تركَ أهلهُ وأصحابَهُ وراحَ يكتبُ على رمالِ الصحارى غضبَهُ الذي يتقلبُ، فلا الرمالُ حفظتْ ولا العقل وصل إلى واحة، وكلما مضغ خبزاً وجده أفعى تلتهمُ أصابعَهُ..
كان ثمة رجلٌ كهلٌ جاثم تحت نخلةٍ، بدتْ من ضخامتِها كأنها زُرعتْ قبل التاريخ، وراحَ الرجلُ ينثرُ مصائرَ طيبة من أكفّ المسافرين، فيمضون فرحين، وحين حدقَ في كفهِ صمت طويلاً..
ضحكَ بتوترٍ وقال للرجلِ مازحاً:
ـــ هل ترى أنني سوف أصيرُ خليفة؟
ـــ لا يا ولدي لكني أراك..
ـــ هيا قلْ لا تخفْ، سوف أعطيك كثيراً وقتذاك!
ـــ .. سوف تنغمسُ في.. بحارٍ من الدماءِ.. وتشهدُ قتلاً فظيعاً.. وتغرقُ!
ـــ أيها العجوز ما بك تقطعُ الكلماتِ والمصائرَ وتخرفُ!
كان وجهُ العجوزِ وهو يرمقُ غيرَهُ مثل أرضٍ محروثة، جافة، ملأى بالأعشابِ الميتةِ.. وراح قلبه يخفق.
ثم صرخ من بين المسافرين المتناثرين:
ـــ من سمح لهؤلاء السحرة بنشرِ الشؤمَ على أبوابِ المدينة!
وكان الحنينُ جارفاً لأهله مثلما هو جارفٌ لصحبهِ وللغضب. كان يمضي لأخواته كأنه لن يفارقهن أبداً، ويلعبُ مع أطفالهن، ويغرقُ في الضحكِ كأنهُ لم يسقطْ في بركةِ المخاوفِ ويفقد

الهواءَ من صدره، ويتذكرُ وجهَ الحيةِ العجوز وهو يتمتمُ جملة لم يسمعها إلا لاحقاً في نومه (لن تذوق تمرة حلوة في فمك)، فيبصقُ على النملِ الذي يخرجُ من شبحِ المتكهن..
ويجد ذاتَ البردِ اللاسع في ليلِ الكوفة، ونفسَ دفءِ الأصحاب الصاخب، وصعصعة اعتزلَ المجالسَ اللاهية الضاجة بالفرحِ والشكوك، وغدا بيته متغيراً، جثمَ قربَ البرية المجدبة، احتضنهُ بشوقٍ، لكن الوجه لم يعد هو الوجه:
ـــ كنتُ في شوقٍ شديدٍ إليك، كان مجلسنا واحداً، حين أغرفُ الماءَ أعطيهِ لفمك، وحين أهجسُ واتألمُ أسمعُ عقلكَ يجيبني، ففرغت الصحراءُ وأجدبت الواحاتُ بعد رحيلك!
ـــ يا أخي.. لم يعدْ طريقُ الدمِ والبغضِ طريقي، كرهتْ نفسي تغيرَ البشر وصخبهم بين جنونِ النقودِ وبلاهةِ الشهواتِ.. ماذا استفادتْ أرواحنا من كل ذاك الرحيلِ الفاجعِ؟!
ـــ أشياء كثيرة تعلمتها.. حين تنزل النهرَ ترى السمك، حين تذهب للصحراء ترى الأسودَ وآثار الصيادين.. وحين تغلق على روحك الأبوابَ لا ترى سوى الظلمات..!
لا ليس هو صعصعة الذي يعرفُهُ، هذا رجلٌ اصطادتهُ حبالُ الشكوك، وصرخاتُ أطفالهِ، وأظافرُ امرأته.. لا يرغب حتى في الخروج معه لرؤيةِ نجومِ السماء في الصحراء. كأنه يخاف أن يقبض عليه أي حارس ما أو يدعوه حريقٌ للصراخ..
لكن هل ينسى نهرَ الحمم الذي قذفهُ على ضفافِ الكوفة؟ هل يتركُ تلك الحيات تتسربُ إلى المخادع؟ ألا يجب أن يخبرَ الناس ما سمع؟
إنهم يتحلقون حولهُ في صحنِ المسجد. عيونهم اتسعتْ فجأة، وصرخاتهم بدتْ تقلقلُ عالمَه.
ـــ أيمكن أن يقوم عثمان بذلك؟!
ـــ لماذا هو مهمومٌ بتعذيبنا وإنقاصِ مداخيلنا؟
ـــ هل أنت متأكد يا أشتر؟!
ـــ هذا ما سمعته لكن لا بد من التأكد فالجوُّ مليءٌ بالكذبِ والغدر!
ـــ لا بد يا رجال من التوجه إلى المدينة هذه المرة، وكفانا دوراناً في البرية والمدن البعيدة، هناك في المدينة مطلبنا!

المضي في البرية ثانية، وترك الأشتر الصغارَ لوحشة الليالي، والنساء لدخان الحطب. مرة أخرى تلوحُ الرمالُ الصفراءُ كأنها كتابٌ مفتوحٌ للأسئلة. ولا السحرة يجيبون ولا القراء المهمومون بالتلاوة.
حشدٌ كبيرٌ من روحِ الكوفة المضطربِ الشجاع، وكأن الأمصارَ الأخرى ألحفة أسرةٍ صامتة.
الطريقُ مفتوحٌ للخيول والسيوف، والمشاة يتعكزون على ظلالهم فوق جمر الصحراء. الرمالُ تسفعهم، وليس ثمة شرطة تربط أيديهم، يتوغلون بين التلالِ الهائلةِ للرملِ التي تغير أشكالها وتكتبُ كلمات غامضة.
أصواتهم غمغمة ترسلُ إشارات غاضبة، وخيط اللحم والكلام والقلق أكبر من دراهم ناقصة، وصرخاتُ أرواحِهم أكبرُ من معدنٍ ضئيلٍ حقير. يعرفُ أن غلياناً غامضاً يدفقُ ماءً إلى جهاتٍ كبيرة متضادة. يعرفُ بأن هذا الخيط من البشرِ يتكلمُ ويحومُ على قبرهِ مثل روح ضالة..
كانت صرخاتُ سعيد بن العاص وراءهم، تدوي بين البيوتِ، بين القبور، كانت أنوارُ السيوفِ ترتفعُ وتكادُ أن تكون غابة، فتتسعُ أبصارُهم لرؤيةِ مستنقع من الدم.
تجمعوا في ساحة المدينة مضطربين وثمة أصوات تزيد اضطرابهم:
ـــ كل شيء لديكم ولا زلتم تتمردون؟
ـــ قريش فوق رؤوسكم أيها البدو!
ـــ قرّوا لهم بالسيادة وبعد ذلك افعلوا ما تشاؤون..
ـــ أي سيادة، لماذا صارت أحجارُ السجونِ تتكلم؟
ـــ كنا إخوة!
ـــ ولا نزال!
إنهم يتكلمون في وجوهِ بعضِهم، في مخاطبةِ الرمل، وللعقارب التي استراحت لدمِ أرجلهم، وللمنجمين الذين فشلوا في معرفة فألهم من صور الغيم الهاربة من جحيم السماء، يغمغمون ويصرخون:
ـــ هيا لنمض، إلى المدينة، إلى المدينة!
ـــ لماذا نحن دائماً، لماذا ليست مدينة أخرى؟
ـــ أكتبَ على الكوفة أن تكونَ رأسَ الرمح؟
ـــ يا إخوتي نحن نريد أن نزيحَ هذا الكهلَ العاجز في المدينة..
ـــ أصرنا أهلَ الحلّ والعقد؟!
ـــ لماذا صمتت مصر؟!
ـــ بل نريد أن يعيدَ فيئنا لنا!
ـــ نسيتم ما خرجتم من أجله!
يمضون، يزيحون الرملَ والشكوك.
المشكلة أكبر من الفيء والنقود والغزو والخراج.. يحدقُ الأشتر في بقعةٍ سوداء تتقدمُ مثيرة الغبارَ والخوف. والخيط المتوغلُ في أسئلةِ وخريطةِ الرملِ يتوقفُ، يتطلعُ إلى طرقِ القوافل

والعواصم، صار خط المدينة مفتوحاً، وسوف يسألهُ الخليفة الرقيقُ الكهلُ: ألم تعاهدني على صنع الخير ولزوم الصواب؟ ما بالك تتقلقلُ في كلّ يومٍ؟
الكوفة لا تأبهُ بنصيبها بل هي تريدُ أن تكون مكانَ المدينة، يُقررُ فيها كلّ شيء. الحجاز غدا بعيداً يسكنهُ الترف، وحشودُ العربِ وراء التلال وفي المستنقعاتِ وبين جبالِ العدو، تلتهمُ الخزائنَ وورقَ البردى والخرافات والأمراض، تقفُ على رؤوسِ جبالٍ مزدانة بالثلج، والزمهريرُ يعصفُ بخيامها، والقطعُ الفضية الشحيحة تتسربُ من بين أيديها لتعلو القصورُ، ويسترخي الحجازُ على وسائدهِ الحريرية، والصحارى تقذفُ بفلذاتِ أكبادها وراءَ خطوطِ العدو لترجعَ بلا أرجلٍ وبلا عيونٍ، وأهلُ دمشق يوسعون دورَهم ويصيرون أنداداً للجبال، أي قسمة؟!..
يرى الأشتر النقطة تصبحُ كرة من غبارٍ؛ ولم يعد السادة يأبهون للقبائل الرثةِ التي ملأت أزقة الكوفة والبصرة والفسطاط، تحرقُ التبنَ لتتدفأ، وتبادلُ الدمَ بألحفةِ الأكواخ، وتتعلمُ من الأسرى والعفاريت..
الكرة تصيرُ جماعة يقفُ على رأسِها شرطيّ بالكوفة، يقولُ بغضبٍ:
ـــ أين تذهبون يا قوم؟
ـــ وما دخلك أنت؟!
ـــ طريقكم هذا هو طريقُ المدينة. أتريدون أن تشغبوا هناك!
ـــ خسئت أتخاطبنا بهذه الكلمات؟!
ـــ عودوا من حيث خرجتم، سوف يأتي إليكم سعيد بن العاص ويخاطبكم بنفسه..
ـــ نريدُ أن نشكوه للخليفة أيها الخادم..
ـــ وغداً سوف تشكون والياً غيره.. هيا عودوا وإلا أثخنتكم بالجراح!
لم يتكلم الأشتر بل سلّ سيفه واندفع للشرطي الذي فوجئ بتقدم جسمٍ منقضٍّ مرعب، وقبل أن يرفعَ سيفه كان ساقطاً على الرمل ينزفُ دمه!

٣

في حديقتهِ الغنّاءِ، في بيتهِ الفسيح، هنا وردتهُ الأخيرة.
نائلة تتطلع إليه بحبورٍ وتقدمُ له الفاكهة مقطعة بالسكين. يدُها تمتدُّ مضيئة كقطعةٍ من النور.
لو لم يكن خليفة لعاشَ هنا دون أن تناوشهُ الهموم.
تضعُ قطعة الخوخ في فمه. تتأملهُ: هذا الكهل الحنون أنساها شدة أبيها، وضراوة الصحراء، وصراخَ الرياحِ في الخيامِ والبيوتِ الصغيرة الضائعة بين البراري..، ومهما كان عدد نسائه وكثرة عياله، فقد ذاب فيها حباً! لو كانت تدري بالسعادةِ لجاءت فتاة صغيرة إليه، لكن هل يكفّ أهلُ الكوفة عن إيلامه؟
ـــ ماذا بك يا عثمان، تبتسمُ لحظة ثم تعودُ للوجوم؟
ـــ ليس ثمة شيء..
يفكر: إن ما يجري بين العرب كلها مثل الزوابع في زاوية البيت، ومهما تمرد أهل الكوفة فإنهم يرجعون أصحاباً له، أين ذهب ذلك الطابور من الوجع والتحدي؟
ـــ لا تشغلي نفسك بهموم السياسة!
جلستْ في مقابله:
ـــ كيف لا أشغلُ نفسي وأنت تنهضُ في الليلِ وتقرأ وتفكر حتى الفجر، فراشك يغدو بارداً، أو أنك تغمغم وأنت نائم.. وتمضي إلى الخزانة وتحدقُ في كشوفِ العطاء، وتتساءلُ بصوتٍ مرتفع: من الذي لم يصل له المال؟ تعطي وتعطي والبعض لا يشبع، وتأكلُ وتتردد، وتصبحُ ملذات الحياة التي كنتَ تعشقها فاترة، بل مخيفة.. فأشعر بفقدك وأنت معي!
ـــ يبدو لي كأن ثمة شريراً ما متوارياً يطلبُ دمي!
ـــ والله لو ناديت لاستجابَ لك الألوف.. لكن من هذا الشرير؟
ـــ لا أعرف يا نائلة. ثمة كائنٌ أسود يحومُ عليّ وأنا قربَ نخلةٍ ذات أغصان من الفضة، يجلدني وأنا أقطفُ له، أصرخ للقافلة التي تغوصُ في عاصفةِ الرمالِ لكن أحداً لا يسمعني، والرجلُ يغرزُ أنصالَهُ في جسدي، وأنهض مفزوعاً، أقرأ القرآنَ، أشربُ رشفة ماءٍ وكأنها تشرقُ بي بدلاً من أن تطفئ حريقي..
ـــ هذا والله من قلةِ الأكلِ وكثرةِ التفكير، هلا هدأت قليلاً، فكلّ شيءٍ حولنا طيب، والناسُ سعداء!
نهضَ بتثاقل، ارتفع صوتهُ فجأة:
ـــ لا محلّة تبكي من الجوع. لم يعد ثمة متسولون ولا لصوص. الأسواقُ ملأى، المدنُ تظهر وتتسع.. لكنني لا أستطيع أن أحولَ حفارَ القبور إلى أمير، أو أنطق الخرس، أو أمنع الوباء.. لستُ مسؤولاً عن البروقِ والحرائق!
ـــ اهدأ.. لا توجعْ قلبك!
ـــ أهلُ الكوفة هؤلاء ارتفعتْ رؤوسُهم الآن من بين المستنقعاتِ وكثبانِ الكراهية، يشغبون على كلّ شيء، يخلقون من التوافهِ أحداثاً، ويندفعون طوابيرَ في الصحراء نحوي، كأنني حاكمٌ رومانيّ يملكُ حشودَ الجيوش حولَ قصرهِ.. لم آخذ شيئاً من فيئهم، ولدي المال الوفير.. ليس

لدي حتى كتيبة. أخافُ أن أصرفَ عليها من مالِ الناس! غير خائفٍ من المصير.. تصوري أنهم يريدون تبديلَ واليهم لبضع كلمات قالها، وبالأمس جلدتُ واليهم السابق وقريبي الدائم، لعلهم في المرة القادمة سيطالبون بجلدي في السوق!

ـــ يخسأون، لو أنك تطلب غابة من الجند لهبّ إليك معاوية مثل العاصفة من السيوف والرماح!

ـــ أعرف أنني محميّ بالعشيرة والولاة الأقارب وأهل المدينة الطيبين، ولا آبهُ بهذا النفر الحاقد، لكنني أفكرُ كثيراً لماذا يكرهونني؟ ماذا فعلتُ لهم؟!

ـــ لا تدعْ حشداً يأتي إلى المدينة منهم، هذا سيكون مثيراً للصخبِ والعنف!

ـــ كيف أقبلُ بذلك!

ـــ ماذا ستفعلُ إذن؟

ـــ ليأتوا بأحكم رجلٍ فيهم.. أريدُ أن أعرفَ ماذا يريدون؟ وبماذا يفكرون؟ لا يهمني سوى أن أدخلَ إلى خبايا نفوسهم، أرى ما يتوارى ويُدفنُ تحت طبقاتِ الكلامِ المسعورةِ الطائشة، أريدُ أن أحركَ هذا الحجرَ الكبيرَ لأبصرَ الحشراتِ التي تنخرُ في العتمةِ والرطوبة والتعفن!

٤

الرجلُ الذي دخلَ عليهِ كان هادئاً يلبسُ ثوباً رثاً وفي وجههِ لحية ضخمة، وبدا أنه يرى بيتهُ بدهشةٍ واستياء. نظرَ إلى الحديقة والطيور والفاكهة بجمودٍ غريب.

تكلم عثمان:

ـــ ماذا حدثَ لكم يا أهل العراق؟ ماذا أصابكم؟!

عامر الكهلُ كان لا يزال صامتاً جامداً، والخليفة يقربُ له أطباقَ الطعام وهو لا يتطلعُ إليها.

ـــ مُدّ يدك يا أخي وكُلْ، أنتَ قادمٌ من رحلةٍ طويلةٍ شاقة!

ـــ لا أريدُ أكلك يا رجل!

ثم أضافَ بلهجةٍ حادة:

ـــ هل تعتقد أن الحياة هي هذه.. أكلٌ باذخٌ وشرابٌ منوعٌ..؟!

جلسَ حائراً متوتراً.

هل أجرمَ أن دعاهُ للأكل، وأي لبسٍ هذا الذي وضعهُ على جسدهِ، شبهِ المثخنِ من لسعاتِ الحشراتِ وضرباتِ الجوع! إن عمرَهُ ليس كما يظهرُ فهو أصغر منه لكنه يبدو كشيخٍ طاعنٍ في السن!

ـــ هل ترفضُ أن تأكلَ هذا اللحم الطيب؟

حدقَ فيه مرة أخرى بجمود:

ـــ لا آكل اللحم..!

ـــ أبسببِ تحريمٍ لم يصلْ إلينا؟

ـــ لا لكنني رأيتُ الجزارَ يلوي عنقَ الشاة ويدخلُ فيه السكينَ الصدئة وهي تصرخُ والموتُ لا يصلُ إليها.. فكرهتُ أكلَ اللحم منذ ذاك الوقت!

ـــ إذن كُلْ هذا الخبز والجبن والزيتون.. لا أحد يتحرجُ من التهامِ الطعام أمامي..

ـــ لم أجىءْ من أجل ذلك.

ـــ إذن لماذا جئتَ، حدثني، لماذا تبدو غير معنيّ بجسدك؟!

ـــ أكره أن أفعلَ ما تفعلون، الحياة لديكم شراهةٌ ولهثٌ وراء الطعام والنساء والنقود!

ـــ أأنت عربي ومسلم يا رجل؟!

ـــ إذن ماذا أكون؟

ـــ لقد تركتَ جسدك في خرابةٍ ما، محاطاً بالأشباح والوساوسِ ورحتَ تمضغُ الهمومَ وتخافُ من النساء حديقة الحياة.. ترتعبُ من الأطفال لملابسهم الممزقة وتقيؤاتهم ولعابهم الذي يسيلُ على يدك وهو أشهى من الماء الرائق، ورحتَ تغزلُ من أشباحك وأوهامك نسيجاً وحياة شاحبة متعبة!

ـــ أتعتقد أنك بهذا البيت الفخم والحديقة الغناء والنساء والعيال حولك قد بلغت شيئاً؟!

ـــ وأي شيءٍ لم أبلغهُ؟ لم أندسّ مثلك في جحرٍ كالضبّ ورحتُ أصنعُ المعاركَ والأحلامَ المنسوجة من خيوطِ العنكبوت، بل سبحتُ في بحرٍ متلاطم، وذهبتُ وراء البحار، وتزوجتُ خيرَ

النساء، وجلبتُ جبالاً من السلع التي راحت تكونُ أجسادَ الأطفال وصدورَ الحوامل.. فماذا كنتَ تفعلُ طوال هذه الحياة؟!
ـــ كنتُ أعبدُ الله ليلَ نهار!
ـــ وماذا كنتُ وإخواني وأخواتي نفعل؟! من أطاح باللات والعزى؟ من كبَّر في مكة والأصنامُ عالية أو ساقطة مسحوقة تحت الأقدام؟ وكان في دبيبِ المعاركِ وصلصلةِ السيوف وليالي الحصار والخوف، يستمتعُ بالأكلِ والنساءِ ويشمّ الهواءَ العليلَ لا الهواء الملوث في الخرائب!
هدآ لحظة من الوجيب.
ـــ قلْ لي من أين يأتيك الرزق؟
ـــ إنني لا أعمل.
ـــ من يعطيك طعامك ويدفعُ أجرة بيتك؟
ـــ الجيرانُ يهدونني بعضَ أكلهم، والبيت كان ملكاً لأبي..
ـــ جزاهم الله كل خير.. كانوا يعملون وأنت عاطل..
ـــ هل جئت إليك يا عثمان لكي تستهزئ بي؟!
ـــ لا أعرفُ من يستهزئ بالآخر. لكنك قطعتَ كلّ هذه المسافة الشاقة، واختارك قومُك بصفتك أكثر الناس عقلاً، ثم رمقتَ داري باحتقار، وتطلعت إلى طعامي باستهزاء، وشمخت بنفسك وأنت مجردُ شحاذٍ على باب الله!
ـــ أهكذا تكون ضيافة الخليفة؟!
ـــ قل لي بماذا يفكر إخوتك في البصرة والكوفة؟ ماذا يريدون مني؟ إذا كانوا ينتقدون أعطياتي فهي لكلّ الناس! وهي كما يبدو لا تهمك، بل لا يهمك كيف يتعبُ الناسُ من أجل إخراج الدرهم من أسنان القرش.. فماذا يريدون أخبرني بالله عليك!
ـــ يريدون أن تعزل سعيدَ بن العاص وتولي أبا موسى الأشعري مكانه..
ـــ هكذا يريدون عزل قريبي الذي لم يرتكب جناية، ويريدون تولية آخر.. أهذا هو فقط سبب شغبهم وإرسالهم للجماعات والتهديدات؟
ـــ نعم هذا ما يريدون هم!
ـــ أأنت لك رأيي آخر؟
ـــ أنا لا تهمني كل هذه المشاحنات ولا آبه بالسلطان لمن يكون!
ـــ إذن ماذا تريد أنت يا فريد عصرك؟
ـــ أن تقلع أنت عن الحكم لأنك تأكل كثيراً وتحب النساء كثيراً، ولأن هذا ليس طريق الله!
ـــ أنت تعلمني طريق الله؟!
ـــ نعم!
ـــ امضِ لقد رأيتُ أسوأ ما يكون، وأنا مجيبهم هذه المرة كذلك على طلبهم، وسأرى إلى أين يريدون من هذا الشغب المستمر!

٥

يتأملُ معاوية المدينة المنورة.
بدأ الناسُ يعيشون وخراجُ الخصبِ في الشمال وفر لهم بيوتاً مرتفعة، أين منها الخيام والآطام!
لكنها عاصمة بلا أسنان، مثل عجوز متصابية، رجالُ قبائلها مالوا للدّعة، وسيوفها غدت صدئة!
وأنت تدخلُ كقيصر، وراءك جندك، وقوافلُ هداياك وشيءٌ من خراجك!
(انتهى زمنُ الخلفاء وبدأ عهد الملوك، فمن ينتبه؟ عثمان لا يرسل كتائب مسلحة للعصاة، والقلقُ غيرُ عظيمٍ بعد. لكن ليس هذا موضع الخوف! ماذا يفعلُ الثلاثة الكبار علي والزبير وطلحة؟ يثيرون النقمة على الخليفة ليقطفوا ثمرة السلطة التي تنضجُ على نارٍ ليست هادئة.. مكاني البعيد مفيد ومضر كذلك. لكن أغلبَ الأوراق في يدي!).
الأسواقُ عامرة، والبيوتُ وافرة، والمارة مشغولون بالمتاجر، وهم يحدقون في موكبهِ لحظةٍ مذهولين:
ـــ أغزانا الرومُ في عقرِ دارنا؟!
ـــ هذه وجوهٌ مليحة بيضاءُ لم تعرفْ شمسَ العربِ الحارقة!
ـــ إنه معاوية بن أبي سفيان.. حامي حمى المدينة من بعيد!
ـــ جاء ليخوفَ أهلَ الفتنِ في الأمصار!
ـــ بل قل جاء ليذكّر أنه القوي!
ليقولوا ما يقولون، فأنت تبتسمُ وتكتبُ التاريخ.
لكن الأدهى أن عثمان استدعى عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي سرح وسعيد بن العاص. كل هؤلاء العاجزين عن سياسة المُلك العليا!
تأتي الآن وأنت في موقعٍ عالٍ فريد، وتتذكر مشيك هنا كشابٍ شبه مجهول بين عمالقةٍ لا يُطالون. تنغمرُ في سيلٍ متدفقٍ يمضي بعيداً عنك، وأنت تجري في ذيولهِ والآن تقتربُ من المصب، وتقفُ فوق خريطة العالم المعمور!
يسألهُ قائدُهُ:
ـــ إلى أين نمضي يا أمير، أإلى بيت الأهل هنا؟
ـــ بل إلى بيت الخليفة!
ليندفع إلى أذن عثمان قبل أي واحدٍ من أولئك الأمراءِ المنافسين، وليملأها بكلامٍ فكر فيه كثيراً ويصبّ قولاً كالسيلِ الحامي الذي لا تقفُ في وجهه صخورٌ أو جدران!
انحنى وحضنَ الخليفة، ووجدَ جسمَهُ المسترخي ليناً كما عهده، وملامحهُ هادئة تشعّ بزيتٍ وطيبٍ، وتحيتهُ الحارة جعلتهُ فرحاً كطفل.
ـــ سيدي وقريبي وإمامي!
ـــ ما هذه الصناديق الكثيرة والأكياس؟!
ـــ كلها هدايا لزوجات أمير المؤمنين وعياله!
ـــ أحسنتَ، الخيرُ يشعّ من كلِّ مسامك!
ـــ باركَ اللهُ لنا فيك!

الأكلُ والتحياتُ وآدابُ المجاملاتِ كلها لا تخفي القلقَ الذي يسري في الأجواءِ كالوباء. العيونُ الضاحكة مهمومة، وأكلُ الخليفةِ النهمِ لم يُعدْ كما هو، أين ذهبتْ شهيتهُ؟! والعيونُ التي تحدقُ فيهما، والآذانُ التي تصغي لهمساتهما، تخيفهُ، وتجعلُ فمَهُ مغلقاً، حتى إذا خلا بعثمان قال بهدوءٍ صارم:

ـــ يا سيدي إن ردودَ فعلك تجاه العصاة والمحرضين تدفعهمُ للمزيدِ من الطمع!

ـــ إنني قبلتُ أن يكونَ أبو موسى الأشعري والياً على الكوفة.

ـــ وهذا ما يدفعُ آخرين إلى أن يطالبوا بإزاحة فلان وفلان!

ـــ هذا ما يقولونه عنك هنا.. لكن كلماتهم لا تصلُ نفسي أبداً، إنني أراك مثل ابني..

ـــ وثقتك هذه هي التي تجعلني أفديكَ بكلّ روحي!

ـــ فماذا ترى أنت؟

ـــ لا بد يا أميرَ المؤمنين من الحزمِ وضربِ رؤوسِ الفتنةِ التي تخفي ذواتها هنا في المدينة!

ـــ هنا في المدينة توجدُ رؤوسُ فتنةٍ؟!!

ـــ نعم، مَنْ يُشعلُ الأمصارَ غيرُ هؤلاءِ الذين لا يخفون أطماعَهم في السلطان ويسربون أتباعَهم وتلاميذهم للأمصار لكي يثيروا الناسَ هناك!

ـــ أيمكن أن أعرفَ هؤلاء يا ابن عمي؟

ـــ مثل طلحة بن عبيدالله الذي أعطيتهُ الكثيرَ في العراق وراح يطمحُ للمزيد برعونةٍ، ومثل الزبير بن العوام الذي ملكَ التجارة ولم يعد راغباً الآن سوى بالخلافة، وعلي بن أبي طالب الذي كان دائماً يرى أنه الأحقُّ بها!

ـــ ماذا تريدني أن أفعلَ لهم؟!

ـــ احبسهم أو اقتلهم!

نهض عثمان مرعوباً وراح يحدقُ بفزعٍ إليه.

ـــ أأفعل مثل هذا العمل الفظيع؟ لم أتَخيلْ أنك سوف تنصحني بمثل هذا. يا إلهي هل أفسدتك السياسة والسلطة يا معاوية؟ أم أن خوفك عليّ دفعك للتفكير بهذه الجرائم؟ أأنا أعتدي على أحد من هؤلاء الأجلاء، وإذا كان هذا الأحدُ كبارَ الصحابةِ فكيف تتخيل أنني أمسّ شعرةً منهم؟!!

تطلعَ فيهِ بودٍ رغم إشاراته الحادة وانقلاب الوديع فجأة إلى ليثٍ هصور!

هل أخطأ الدروبَ إلى نفسهِ؟ هل كان عليه أن يهيىء لهذا الاقتراح الجنوني وهو يعتقد أن الحكمَ نزهة على ضفاف النهر؟!

قال بهدوئهِ المستمرّ البارد:

ـــ لا بد لكَ يا أميرَ المؤمنين أن تقومَ بأعمالٍ حاسمة قوية وإلا تركتَ هؤلاء يصعِّدون أتباعَهم حتى يملأوا الفضاءَ عليك خيولاً وفرساناً!

لم يزلْ يحدقُ فيه بذهولٍ كأنهُ الطفلُ البريءُ الذي لم يتعلمْ شيئاً من مستنقع السياسة. يهتفُ وقلبهُ يفزعُ من علوّ صوتِه:

ـــ أهذا هو الذي تتصورهُ.. مجرد قوة تشكمُ وتخيفُ وتهدمُ؟! وبعد أن تسيلَ أنهارُ الدمِ هل سوف يهدأ الناسُ وينقرضُ نسلُ التمردِ؟ ألن يظهرَ آخرون وآخرون حتى يزيلوا ما بدأتهُ أنتَ؟ لكنك في البدءِ تكونُ قد رسمت سبيلَ الشر وبذرتَ بذورَ العنفِ والخبثِ في الأرض فازدهرت وتنامت!.. لكن مثلي أنا لا يلجأ لذلك تجاه الناس، ودعهم هم الذين يريقون الدماءَ وينشرون

الخوفَ والمعاصي بينما أنا في أرضٍ مختلفة نظيفة، وهم في مستنقعِ الجثث والدماء، ويروحُ الناسُ بعد ذلك يلعنونهم..
أيكونُ هذا الرجلُ أكثر ذكاءً منه وهو الذي حسبهُ ساذجاً؟ منطقٌ مذهلٌ وشيءٌ لم يفكر فيه بتاتاً أبداً ولن يفكرَ فيه: المستقبلُ البعيدٌ ما لنا به!
(وفيما الأرض تميدُ به وزلزالٌ ينشأ في أعماقها يفكرُ هو في صنع الخير؟! هل تصلحُ السذاجة للسلطان؟!
لكن لا بد من تنبيهه إلى هذه المخاطر حتى لو لم يسمعْ فلم تعد السلطة لهُ وحدهُ!).
ـــ إذاً ما رأيك أن أضعَ لديك خمسة آلاف فارس يحمونك من أي فتنةٍ قد تنشأ؟
ـــ ومن سوف يدفعُ لهؤلاء؟
ـــ بيت المال!
ـــ وهل أجعلُ بيتَ مالِ الناس يدفعُ أجوراً لحماية شخصي؟! أي اقتراحات فظيعة هذه يا معاوية!

يكادَ يطيحُ، كأنه سكران وما هو بسكران، ولكن عذابَ الأهلِ فظيعٌ!
لا يصدق أن تلك الثلة التي جمعها كي تساعدَهُ بدت كجماعةٍ من الذئابِ تكاد تفترسه! فأين ما بذلَ لهم وأعلى من شأنهم؟
معاوية تغيَّر في المجلس فجأة وغدا صامتاً أكثر الوقت، قال جملة واحدة ووضع عباءة ثقيلة من الترفع واللامبالاة، وكأنه كان يودُّ أن يعرفَ كيف يفكر الآخرون ويخطط للإيقاع بهم؟
عبدالله بن أبي السرح أخوه من رشفات الحليب، ينزوي هو الآخر، ويتكلم بلا حماسة، تاركاً إياه لمصيره!
كأنه كان يحملُ صخرةً على ظهرهِ، وهي تغرزُ أسنانَها في ضلوعهِ، ويهتفُ بهم (تعالوا ساعدوني!) لكنهم سدوا آذانهم ووضعوا قماشاً ثقيلاً فيها.. وتركوا الصخرةَ تضغطُ عليه حتى تكاد تخنقهُ!
أهؤلاء هم الذين أرسلَ لهم قوافلَ الهدايا وباعهم فيئاً من فيء الناس والجنود مُعلياً من حياتهم، مُزيداً لهم رواتبهم، مهتماً بمساكنهم وتوسيع حكمهم؟!
يا أولادَ الأفاعي!
اقتراحاتُهم نداءاتٌ بعيدة وقذفُ رملٍ على ذئابٍ شرسة، وجاءت الطعنة النجلاء من عمرو بن العاص:
ـــ لك أخطاؤك ولم تصلحها فليتك تتركُ الخلافة لمن هو أشد قوة وحسماً منك!
من يتكلم هنا؟ أهو عمرو الذي فتحَ وجاهدَ أمْ عمرو الذي يملأه الحقدُ ويأكلهُ الحسدُ لأنه أُبعد عن البقرةِ الحلوب مصر التي يريدها أبدية في حقله الخاص! كانت تأكلهُ الحسرةُ ويوزع الشتائمَ على كلِّ القوافل التي تمرّ قربَ بيت الرمل والعقارب الذي يسكنهُ في فلسطين!
هل يعتقدون أنه لا يستطيع أن يرسلَ جيشاً كثيفاً إلى الكوفة أو إلى أي مصر ويقطع من يرفعُ رأسَهُ؟ هل هي بطولة أن يوزعَ بعضَ القتلة في الأحياء ويجعلهم يدهسون الرقاب؟!
لديه من الأموال التي يستطيع بها أن يحولَ نصف سكان المدينة إلى عيون!
لماذا لم يعرفوا محبته؟
لماذا لم يلمسوا رهافته؟
لماذا هو وحيدٌ في قمةِ السلطان؟! منبوذ ويداهُ تحولان كلَّ شيءٍ إلى ذهب وخناجر! ثمة خرافة يروونها عن ملك تحول يداه كل شيءٍ إلى ذهب حتى مات عطشاً وجوعاً؟ أهو نفسه تتحول الأشياء بين يديه إلى أفاع وعقارب؟
من يستطيع أن ينامَ على تلٍّ من نقودٍ وعقود وصكوكٍ مكتوبةٍ بالدم!
(تعالي يا نائلة وأمسكي بيدي! أكادُ أسقطُ من العناءِ! دثريني بحبكِ الدافئ. انزعي بعضَ هذه الأشواكَ التي غرسوها في جلدي. حتى أنتِ صرتُ أخافُ منكِ! ألم تأتي من جهة معاوية أبي السيوف؟ معاوية صاحب اقتراحات الدم والجريمة..؟! ألم تقومي بمدحهِ مراراً؟ ألم تقولي وسعْ ملكَهُ! ماذا تخبئين في صدركِ أيتها الجميلة البدوية القادمة من الشام؟ هل كان أبوك منادماً

لمعاوية؟ قد يكون خريجَ مدرسة العقارب هذه! وأنا أبحثُ عن قطرةِ سمٍّ واحدةٍ في جسمي فلا أجدُ!
تعالي يا نائلة!
تعالي أيتها الوردة التي تتحملين قلقَ عجوزٍ ومخاوفَهُ من كلِّ شيء!
يقولون: أشغلْ الثوارَ بالفتوح! انثرْهم وراءَ الحدود! بعثرْهم بين الجبالِ والصقيع والذئاب!
أي اقتراحات ملعونة هذه؟!
هؤلاء الفتية مثل أبنائي، كيف يمكنني أن أفرطَ فيهم وأعرّضهم للموت حباً في هدوءٍ قاتلٍ حولي!)..
يا إلهي لماذا يخافون من الموت هكذا؟!
صرخَ:
ـــ من يرد أن يجاهدَ فليجاهد!
تطلعت فيه نائلة بدهشة:
ـــ ماذا بك؟ عرقٌ غزيرٌ يغسلكَ ونحن في الشتاء!
ـــ إنهم أهلي يا نائلة، الناس الذين رفعتُ من مقاماتهم، هل هناك أهم شيء من الفضيلة والحقيقة؟ الأهلُ والطمعُ والدينُ أمورٌ لا تستوي.. آه.. إنني تعب. يا لحسن الختام، لا أريدُ سوى حسن الختام!

الفصل الثامن

في هذه الممراتِ السريةِ الدموية للتاريخ تمشي بهدوءٍ صلب، لكن القمة بعيدة وغير مرئية..
مثل أزقة الفسطاط، تدفق القرويون إليها من عروقِ الحقولِ النازفة، يحملون عصافيرَ النخيلِ النافقةَ، يمزجون بين أوزوريس وأمهِ ومريمَ العذراءِ، ويدهشون أن بدوياً جاءَ من الصحراء ليعلنَ القيامة..
قطعُ ملابسِهم الممزقة، وأبناؤهم المرفوعون بأذرعتهم، مثل غبار الأيام تشكلُ الطرقَ وتتوارى..
يا عبدالله بن سبأ جاءتْ أيامك، لتصعد على قرميدِ المسرحِ العالي، حشدٌ يتجمعُ حولك، مذهولٌ أنك تعرفُ لغتَهُ، وتنشرُ آلامَه:
ـــ أيها الإخوة إنني أقولُ لكم إن النورَ لم يظهرْ بعدُ، لكنهُ موجودٌ، لهذا لا تزال السياط تكتبُ على ظهوركم، والسكاكينُ تحفرُ في جلودكم، لكن هؤلاء تلاميذي قادمون من دهاليز هؤلاء البدو المرعبة، إنهم فتية لم يموتوا ليبعثوا بعد مئات السنين.. بل إنهم أحياءٌ ليرفعوا النور على كرسي السلطان في المدينة..
ـــ أشرح لنا يا عبدالله ماذا ستفعلون؟
ـــ طردونا من حقولنا!
ـــ كووا ظهورنَا بالخراج المرتفع!
ـــ قلْ ماذا ستفعلون؟
ـــ كان عمرُ بن الخطاب رفيقاً بنا!
ـــ سوف نزيحُ هذا الكهلَ الرابضَ على الحكم والذي يوزعُ الذهبَ والفضة والأراضي على أقربائه اللصوص! إذا تركناه فلن يبقى شيءٌ لكم..
ـــ ماذا لديكم؟ بضعة شبابٌ غض؟
ـــ لدينا الكثيرون من الناس، سيتدفقون مثل سيول.. لكن ليس كل هذا مهماً.. انظروا إلى السماء!
رفعت الرؤوسُ الكثيرة أنظارها إلى بساطٍ أسود هائل فيه خرزٌ ملونٌ وشرارات. فجأة ظهر خيطٌ طويلٌ من النور، وراح يندفعُ بقوةٍ نحو الأرض، ملأ الضياءُ بقعة واسعة من ذلك المخزن الأسود المعتم..
ضجّوا:
ـــ الرب!
وصرخ بعضُ العربِ:
ـــ الله!
ـــ أرأيتم؟ ما هذا؟ إنها الروح العليا تنزل على أحدٍ من العرب وتكون فيه. غداً ستأتي لكم هذه الروح، ستقدمُ لكم كلَّ شيءٍ، لم يعدْ الآن ثمة وقتٌ للخداع أو الانتظار، فالإلهُ موجودٌ على الأرض، وسوف يلبي كلّ رغباتكم. أنت أيها الأب الذي تحملُ كلّ هؤلاء الأطفال، تشردتْ من

أرضك واغتصبوها، وأنتِ أيتها المرأة التي فقدتِ زوجَكِ، وأنتم أيها الشباب البؤساء تمشون بالأسمال وخيركم يتلاعب به صبية صغارٌ في القصور!
أخذت الأزقة تضخُّ بشراً وأسمالاً وعاهات وأحلاماً وراحت تحدقُ، تظهرُ من بين حفرِ الرمادِ ومستنقعاتِ المطرِ، تضعُ على أجسادها أشياء ثقيلة تحملها فتستريح، وتتسلى قليلاً، ثم تمضي نحو حفرِ النار، تمتلئُ عيونُها ببريقٍ، وتذهلُ من عظمةِ النورِ المنتشر في السماء..
ـــ غداً سوف يأتي لكم بنفسه. هذا النورُ سيكونُ حقلاً وبيتاً.. يجيءُ من صحراءِ العربِ التي طالما نشرتْ سيوفاً، الآن سيكونُ وقتُ الحصاد فافرحوا يا تعساء.. جففوا دموعكم واشحذوا خناجركم!
وانتشرتْ غمغمة بين الحشد:
ـــ الشرطة قادمة بسياطِها!
ـــ اهربوا قبل أن ينتزعوا منكم أسمالكم!
ـــ ليت نور الأرضِ يفعلُ لنا شيئاً الآن..
ـــ هربَ الناسُ بسرعةٍ مذهلة!
ـــ أين الخطيبُ الغريبُ المفوّه؟!
ـــ هو أكثر الناس مطلوباً للشرطة، هل تعتقد أنه سيبقى لهم غنيمة سهلة!
ـــ إذن اهربْ أنتَ أيضاً!

يتقدم الرجلان في الدربِ المتربِ وحولهما أزقة كثيفة من أكواخٍ تضجُّ فيها صرخاتٌ وتتصاعدُ أدخنة كريهة، وتمتلئُ الأرضُ بالسوادِ وشظايا النحاس، وعند كوخٍ يدقُّ أحدهما الباب، وتطالعهما عيونٌ من الثقوب.
يدخلان على حشدٍ، وينهضُ عبدالله ليحيّي أحدهما بالعناق:
ـــ الأشتر وصل مصر، حياك الله يا أخي!
ـــ حياكم الله جميعاً!
مشى الأشتر طويلاً، اختبأ من جندِ الخليفة، الدروبُ تطالبُ بدمهِ، ومر على غاباتٍ من الذئابِ والكلاب، أقاموا معسكراً حول بيتهِ من العيون والسيوف، أراد أن يلجأ لصعصعة لكنه خاف.. فصار الليلُ والخلاءُ ألحفتهُ في الحياة، والنورُ والنهارُ فراشه للنوم والغياب.
وجوهُ الرجالِ في هذا الكوخ لا تبدو سوى شراراتٍ عابرة، لكنه يمضي لتعقب ملامحها وأصواتها وحشرجتها، مصغياً لكلِّ نأمةٍ أو ترددٍ أو عاطفة جياشة، يرسمُ لوحاتٍ لأشكالها وأرواحها.
ـــ ما وراءك؟!
ـــ أردنا أن نمضي للخليفةِ نفسهِ فمنعتنا خلافاتنا..
ـــ ماذا تريدون من الذهاب إليه..؟
ـــ إما أن يتبع سنن الشيخين أبي بكر وعمر وإما أن يدعَ الحكم لمن هو أجدر منه!
وقف عبدالله في وجهه:
ـــ والله إن هذا الكلام ظاهره رحمة وباطنه شر!
أثارت الجملة صخباً، احتدم الأشتر وهو يحدقُ في هذا الشبح الذي رآهُ كطيفٍ دائم، وسمعَ بمرورهِ وحكاياتهِ فظنهُ مثل الجن، لكنه ها هو الآن أنسيٌّ من لحمٍ ودم ويبترُ جملتهُ، ويسفهُ رأيَه، والقومُ حوله في ضجيجٍ غريبٍ مخيف:
ـــ والله إنه لكلام الحق الناصع!
ـــ بل هو هراء!
ـــ ماذا تفهم أنت من كلام الصفوة!
ـــ لو سمع الناسُ مثل هذا الكلام لسفكوا دمَنا!
ـــ عبدالله لا يأتيه الباطلُ..
ـــ اسكتوا لنسمع رأي الأشتر القادم إليكم عابراً الصحارى والعسس، جائعاً، مرهقاً، ومعه رفيقهُ الصامت كنانة..
في ضجيجهم شيءٌ يخيفهُ، إنهم زوبعة من سيوفٍ ورماح، ماذا لو خرجتْ من نفقِها السري؟
ـــ ماذا تقولُ أنت أيها الأشتر؟
ـــ إنني أريدُ أن أسمعَ رأي عبدالله الغريب ذاك؟
ـــ نعم دعوه لحظة يتكلم!

كان مثل صخرة جاثمة حولهم، لكنها تغدو فجأة مثل نبع، هذا الجلدُ الصلدُ والشبحُ الأسودُ يستطيعُ أن يضيءَ بغتة، كأنه قنديلٌ في سفينةٍ تمضي في لججِ البحرِ العاصفِ، فينيرُ ويعتمُ، يشعلُ خرقاً مبلولة بالماء، لكن النارَ تنطفئ، يقول:

ـــ نورُ السماءِ يختارُ أصفياء له. لا يمكن أن يخطئَ دربَهُ، كيف يخطئُ الإله؟ كيف يضعُ نورَهُ في سبخٍ؟ كيف لا يميزُ بين الطينةِ النقيةِ والطينةِ الرديئة؟ من يقولُ غير ذلك؟ هل أحدٌ منكم يقولُ غيرَ هذا؟!

صمتٌ مريعٌ، النورُ الضئيلُ يتيحُ رؤية هذه الوجوهِ الصلدة القادمة من البراري والصحارى، ومن الثغور، ومن المعسكراتِ المشتعلةِ في المدن، ومن الأكواخِ والحجراتِ البائسة، والتي تصغي لهذه الكلماتِ بتوترٍ ورهبة.

إن عبدالله يمضي بقوة:

ـــ عليٌّ وحدهُ الآن الباقي من هذا النور.. ليس عبثاً أن اشتعلت السماءُ قبل أيامٍ وبعثتْ برسالتِها إليكم، انهضوا وامضوا.. لقد ثرثرتمْ طويلاً، وعبثتمْ بالرسالةِ كثيراً، وحين ترون النور لن تتجادلوا، وسيتغيرُ كلّ شيءٍ، ضعوا الحكمَ بين يديهِ فتظهرُ الجنانُ لكم!

ـــ هذا كلامُ شاعرٍ!

ـــ قالوا قبل ذلك شاعرٌ مجنون!

ـــ بل هو ساحرٌ من اليمن!

ـــ قالوا قبل ذلك هذا وما هو بساحر!

ـــ ألا تحترمون هذا الرجلَ الفذّ بيننا!؟

ـــ ماذا تقولُ يا أشتر؟

الرجلُ الصامتُ القادمُ مع الأشتر كان كصخرةٍ وفجأة صرخ كنانة:

ـــ بماذا تجعجعون.. لا يفيد في هذه الأمور سوى هذا..!

وأشار إلى السيف!

٣

هذا والله رأيهُ الذي كان يحومُ في نفسهِ طويلاً، لم يعرفْ كيف يستخرجهُ من رمادِ الأيامِ وعفنِها وحزنِها، كيف كان حبهُ لعليٍّ لا يصلُ إلى ذروةِ هذا الجبل المضيء؟

حدق في عبدالله مذهولاً. اللّيلُ والكوخُ والرهبة والخوفُ كلها زالتْ وظهر الصبحُ وحل النورُ وجاءَ الشبع!

هذا الرجلُ الطيني البسيطُ الشكلِ، الذي لا ملاحة لهُ، يبدو أنه التصقَ بالأرضِ طويلاً، وبينما هو يتلجلجُ يمضي الآخر في تدفقهِ اللغوي المثير الكاسح كشلالٍ من شلالاتِ أفريقيا حيث الأسرار والسحر، وحيث العرافاتُ يصنعنَ التاريخَ بالزجاجِ والأشعار..

أخذهُ إلى غرفةٍ علوية، وانبسطتْ تحتهما الأرضُ الخضراءُ، وانتشرَ الحمامُ، وظهرت تماثيلُ الزارعين طينيةً لزجة مسودة غائصة في السبخ.

على مائدتهما خيرُ الأرضِ وحولهما قبضاتُ الفلاحين وفؤوسهم، لكن كلَّ شيءٍ خارج عبدالله بدا زيفاً، قال:

ـــ علمني، علمني من هذه الأسرار، أنا كنتُ أصرخُ سنوات دون أن يحبني أحدٌ، وأنت في بضعةِ شهور أحاط بك الناسُ، أنا الآن طريدٌ يطلبُ دمي الخليفة وأنت تخترقُ جدرانَ البيوتِ والأشياء! في نفسي غصة من الدم الذي أرقته متسرعاً وعذبني ضميري لكني خائف أن أسلمَ نفسي!

ـــ أمامنا بحيراتٌ من الدم فما بالك غرقتَ في قطرة!

ـــ ألا يهمك هذا القتل؟!

ـــ أنت تزحفُ على الأرض، أنت لستَ طائراً بعد. أنت لا تحلم!

ـــ تركتُ أهلي على شظفٍ، أخذتني الرواحلُ إلى كلِّ مكانٍ ولم أصلْ، تلثمتُ وتلعثمتُ وصرتُ مرة شحاذاً ومرة أخرس، والعيونُ لا تتركني، والعالمُ لا يتغير، وأحببتُ علياً لكن لم أظنّ أن ثمة رجلاً قد رفعهُ إلى هذه المكانة وجعلهُ على العرشِ غيرك!

ـــ أنت رفيقي الذي لم ألتقِ بهِ، وعرفتكَ وأحببتكَ قبل أن أراك، ورسمتُ في غيبتك ماذا سأقول لك، ورأيتُ وسمعتُ ماذا ستقولهُ لي، وكان الانقطاعُ بيننا ليس مجهولاً لي، واللقاء معروفاً، والآن إنك صرتني، غدوتَ عبدالله آخر، لأن الحلم بدأ يدخلُ روحَكَ ويفكَّ أسركَ فأخرجكَ من الجلد الذي كنتَ ترتديه ويخنقك!

ـــ في هذا اليوم الذي لم نعرفْ فيه النومَ طالَ الزمانُ إلى أن صار دهراً..

ـــ لم تعد الرسائل مفيدة، ولم تعد الحروفُ والجلودُ إلا قيوداً بيننا. جماعتنا منتشرة مفتتة، ممزقة، تقطعها الصحارى والجبالُ والمخاوفُ والعسس، غائصة بين خراءِ أطفالِها ودموعِ نسائِها، تزحفُ من أجل اللقمةِ التي تُلقى لها في الوحلِ وعلى الرملِ، وتنتشرُ الأسربة بين عيونِهم، فلا بد أن نلقي هذه الصخورَ من الجبالِ والذعرِ وحُبِ الذات، لا بد أن نحضنَهم بين سواعدنا وندفعهم كسيلٍ جارفٍ نحو المدينة ليصححَ التاريخَ ويعدلَ الميزانَ ويجعلَ الإلهَ في الإنسان!

نهض الأشتر وكان الضياءُ يتدفقُ على بساطِ القمح، وينعكسُ على وجهيهما.

ـــ يا أخي عبدالله إنك تقول ألفاظاً غريبة لم تُسمع من قبل؟!
ـــ ستفهمُ أشياء كثيرة حين يبدأ السيلُ في التدفق!
ـــ كيف..؟
ـــ لنبعث الرسائل ونشعل الحطبَ الجافّ اليابسَ.. ليغدو النور ناراً!
ـــ وهل تصنعُ الرسائلُ شيئاً؟
ـــ امضِ أنت رسالة حية بعدها!
ـــ كلما تحدثتَ تفتحُ أبواباً مدهشة وغريبة.. ومحيرة!

٤

ينفتحُ الأفقُ أمام أبي ذر أصفر ضارياً.
لم تعدْ تأتي من جهة المدينة قوافل وحشودٌ سوى حارس يأتي كلّ بضعة أسابيع...
الأرضُ تغلي، والسماءُ تفورُ، والينابيعُ غارتْ في الأعماق، والطيورُ لم تعدْ تُرى، وبساط الأعشاب الذي ظهرَ بعد الشتاء اختفى، وصارَ جسدهُ مثل غصنٍ يابس، برزت ضلوعُهُ، وبدا كأنه هيكلٌ عظمي خارجٌ من التراب..
زوجتهُ تحدقُ فيه بإشفاق، وهو يتعكزُ على ظلالهِ، ويسقي ثلة الأشجار والحشائش الصامدة في حماه.
هناك قبر ابنته! هذا هو الجسدُ الوحيد الذي تمنى أن يبقى، وصلى كثيراً لكن وحشَ الموت كان يسحبها نحو الصحراء، وكلما ضربَ يديه وكسر أسنانه عاد في ليلةٍ أخرى وهو يحمحمُ، طالباً ضلعاً من ضلوعها أو عيناً، وهو يصرخُ به: خذني أنا، لماذا تدع هيكلي يصيرُ مثل الصخر، وهذه النبتة الغضة، هذه الزهرة التي جئتُ بها من بين غابةِ الشوكِ كي أزرعها في البرية، هذه القامة الصغيرة المشعة التي حزتُ عليها من كلِّ الرحلةِ الطويلة المضنية، تريد أن تأخذها؟!
ألا ترحم وحدتي الممضّة هذه؟ ألا تنساني قليلاً وأنا ليس معي سوى هاتين الأنثيين؟
الحارسُ الذي يأتي يحملُ الكثيرَ من الأكلِ والأشياء، يقولُ له:
ـــ الخليفة يسلمُ عليك.. لكنك لا تزال غاضباً عليه..
ـــ لماذا تقولُ ذلك؟
ـــ أرى أن كلّ الأكلِ قد وزعتهُ على الناس العابرين، لم تذق منه شيئاً، كأنك تظن أنه من مالٍ حرام؟
ـــ لا يا أخي لكنني أعيش على هذا الحقل الصغير، تلك النخلات تطعمني، وتلك الخضرة تفجرت في الربيع مراراً..
ـــ وحتى الثياب التي جلبتها إليك ليس ثمة شيء منها عليك؟!
ـــ لن أستقبل أحداً من علية القوم هنا!
ـــ ماذا تريد سوف يعطيك إياه أمير المؤمنين!
ـــ لا أحتاجُ إلى شيءٍ هنا، عندما كنتُ أقوى كنتُ أصطادُ الطيور. أرافقُ ابنتي وهي تلتصقُ بي فرحة ونحن نجري على الرمال، ونضعُ الفخاخَ وننتظر، وحين تنزلُ تلك الأجسام التي تشبهُ لون التراب على مصائدنا نجري فرحين إليها، لكن ابنتي لم تعد تقدر على الجري، وكانت حين تصل إلى الطيور المسكينة التي تكون مضطربة هائجة متألمة تطلقُ سراحَها وتروحُ تحدقُ فيها وهي تطيرُ مذهولة فرحة.. حتى لم تعدْ تستطيعُ أن ترافقني، تحولتْ إلى عظمٍ يابس.. والطيورُ كانت تحلقُ وتطيرُ وتجثم قربها مراراً، وتقول لي: سوف أطير مثلها يا أبي نحو السماء!
ـــ ولكن لا يحق لك أن تحرمَ نفسك وتجوع..
ـــ وحين ماتت غدت البرية مثل قفص، وأنا طيرٌ محبوسٌ..
ـــ رحمة الله عليها..

ـــ هل تعتقد أنني جنيتُ عليها بكل هذا السفر الطويل والحرمان ومن دمشق الفيحاء العامرة بالأشجار والفواكهِ حتى المدينة التي تضجّ بها الأسواقُ والسلع، ثم إلى هذا القفر! كانت مريضة، ثمة داءٌ ظلّ يلاحقها.. لم يبق لنا أحدٌ من أقرباءٍ أنا وتلك المرأة.. إني أنا الآن أتبع الطفلة..
وحدقَ في البرية مجدداً ولم يكن ثمة أحد.
يلتصقُ بامرأتهِ، يتحدثان، تنام، يغطيها باللحاف، يقول له الحارسُ هامساً: يا أبا ذر هذه قطعة قماش لكفنك! قطعة قماش فاخرة! يردّ عليه: لا أريدها لدي ثوب عتيق من أيامنا الأولى. فيه رائحة الأحباب! اذهبوا بأموالكم وذهبكم بعيداً عني، أنا أمشي الآن مع الحشودِ التي لا ترونها، بشرٌ كثيرون يرافقونني في رحلةِ الحياة والموت، أدينا الأمانة، قمنا بواجبنا، فلا نريد أن نأخذ..
غفا ورأى بضعة أنوارٍ تتقلقلُ في البرية، وثمة أشباحٌ تعبرُ الطرقَ المزدحمة الخالية، وانفجرت أصواتٌ، فنهضَ مفزوعاً وسار، ودهش أن الجو اضطربَ كثيراً، وانطلقت الرياحُ تعوي في الجهات الأربع، وسمعَ صراخاً عنيفاً في تلك الظلمة المنيرة، ومشى وقلبهُ يدقّ بقوة، وجاءه الشبح، اقترب منه فوجدهُ مضرجاً بدمه، حدقَ فيه وصرخ: من هذا؟ عثمان؟
الشبح كان يغمغمُ ويهمسُ: أين أنت يا أبا ذر تركتني وأنا ضيفك.. وجاءت غيلانٌ، لماذا رحلت؟
حاول أن يفتح فمه لكنه لم يقدر.

الفصل التاسع

١

عاصفة غبارٍ عنيفة، الأجواءُ صفراءُ خانقة، وغاباتُ الأشجار والنخيل تلتفّ بمعاطفِ التراب، والبشرُ مغسولون بذراتِ الرمالِ الرمادية، والنيلُ يشبهُ تمساحاً طويلاً ميتاً، والحرسُ يتدفقُ في الأزقةِ والطرقِ والحارات، وأنصالهُ تلمعُ. يقولُ القائد:

ـــ لقد رأيتهُ في هذه الدربِ.. حدقوا في وجوهِ الرجالِ جيداً! تمعنوا فيها فإذا رأيتم سحنة ملتوية شائكة من الحقدِ فاعرفوا أنها سحنته!

ـــ يا سيدي إن العاصفة تخفي أنصافَ الوجوهِ والكوفياتُ تتكفلُ بالنصفِ الآخر!

ـــ ولا تنس المكر!

ـــ إن الأميرَ وعدَ بجائزةٍ كبيرةٍ لكم إن تمكنتم من إلقاءِ القبضِ على هذا المجرم الفار الذي قتل شرطياً في الكوفة!

ـــ أليس هو ذاك الرجل الذي يمشي بسرعةٍ شديدة كأنه يهربُ منا!

ـــ نعم كما يبدو.. قفْ أنتَ أيها المتخفي!

يندفعُ الحرسُ بقوةٍ، ترتجُّ الأرضُ ويرفعُ الشحاذون والحرفيون والباعة رؤوسَهم، وتطلّ النساءُ من خرومِ النوافذِ وهن يسْددن أنوفَهن عن الغبار، وتتعالى الأصواتُ هامسة، حادة، وتتقاربُ السواعدُ والرؤوسُ، فيما يتحلقُ العسكرُ حول البابِ الذي تسربَ فيه الرجلُ الغامض.

تهزّ قبضاتهم ذلك الخشبَ المترجرج، وترتفعُ سيوفُهم ثم ينهارُ الحاجزُ ويتحطمُ تحت صواعقِ الأحذيةِ، وتُسمعُ صرخاتٌ من داخلِ البيتِ ويسرعُ الجمهورُ مقترباً من عاصفةِ الحرس:

ـــ ماذا يحدثُ هنا؟

ـــ يُقال إن ثمة ثلة من المجرمين الهاربين وقد تمت الآن مداهمتهم!

ـــ هل عاد الحرسُ الرومي مرةً أخرى، لم نشهدْ ذلك من قبل!

ـــ أغلقْ فمك وإلا تعرضتَ لقبضةِ الأمير التي لا ترحم!

ـــ ها هو المجرم المطلوب، وهناك أناسٌ آخرون معه!

ـــ يا الله إنهم حشدٌ غريبٌ من الفتية القرشيين!

ـــ ها قد جاءَ زمانٌ يذوقون فيه بعض العسف الذي نشروه!

كان الحرسُ يقبضُ بقوةٍ على ثلة، ويبحثُ عن شخصٍ بعينه نازعاً الكوفيات، مطيحاً بأغطية الرؤوس، فيما المقبوضُ عليهم يصرخون ويرفعون أيديَهم وينزعون أكتافهم بشدةٍ، والضرباتُ تتالى على وجوههم وصدورهم، يقول أحدُ الشباب:

ـــ ألا تعرف من أنا؟ أنا ابن أبي بكر الصديق!

قائدُ الحرس يوقفُ العسكرَ ويقتربُ من الشاب، وحين يكتشفُ وجهَهُ في ذلك الزحام والغبار والفوضى يصرخ:

ـــ قفوا، قفوا.. نعم يا سيدي لقد رأيتكَ من قبل عند الوالي، لكننا نريدُ رجلاً آخر متهماً بجريمةٍ.. لا نعرفُ وجهَهُ تماماً.. بينكم.. أليس هذا هو الأشتر النخعي.. الهارب..!؟

ـــ نعم هو ذاك!

ـــ إذن لا بد من اعتقالهِ.. لدي أمر من الأمير..

ـــ لا تستطيع ولا يستطيع أميرك الجائر أن يفعلَ شيئاً.. أيها الناسُ!
تزدادُ الضجة ويتقدم كثيرون إلى الطريق الذي يفيض بشراً على الأزقة والساحة القريبة، وكان محمد الآن قد ارتفعَ وظهر جزءٌ من جسمهِ للحشد، ويبدأ العسكرُ بالانحشار وسط هذا النهر المتدفق، ويشعرون بالتململِ والتمزقِ، وراح الفتية ينزعون سلاحهم، وكانت صرخات محمد الأولى قد ضاعت، لكن الأشتر صعد هو الآخر وراح صوتهُ الجهوري العنيفُ يجذبُ أسماعَ الحشد:
ـــ أيها الإخوة علينا الآن ألاّ نضيعَ الوقتَ، ليهجم قسمٌ منا على قصر الوالي ويذهب قسمٌ آخر إلى المدينة، لننزع الخلافة من رقبة الخليفة الضعيف الذي لا يشكم هؤلاء اللصوص والمجرمين..!
النداءاتُ تتالى، والصرخاتُ تعلو، وذلك البحرُ المبعثرُ بين موجاتٍ عنيفةٍ متلاطمةٍ يتوحدُ في هديرٍ غريبٍ، ترددٌ خاطفٌ، ثم يجيءُ رجالٌ جددٌ وينضمون للفتية، وصمتَ الناسُ قليلاً وكانَ صمتاً متوهجاً مخيفاً، وراحت دوائرُ الغبارِ تسفعُ الوجوهَ بشدةٍ، وشعرَ الأشتر بحماسة شديدةٍ فراحَ يصرخ:
ـــ قال عمر بن الخطاب إذا رأيتم خللاً فيّ فقوموني بسيوفكم! ونحن لا نريدُ أن نقومَ عثمان بالسيوف بل بالنصيحة ثم بالإرغام إذا لم يستجب لكي يترك الخلافة لمن هو أجدر منه، سوف تضيعُ أحوالُ المسلمين إذا استمرَ هذا الرجلُ في الحكم!
ـــ نعم، هذا حقٌّ!
ـــ هيا امضوا إلى قصر الوالي!
ـــ تسلحوا خذوا مؤناً للمضي إلى المدينة!
ـــ عليكم بالرواحل والخيول!
ـــ ها قد اختلفَ المسلمون!
ـــ يبدو أنهم جادّون هذه المرة!
ـــ انظروا كيف صاروا حشداً هائلاً هكذا؟!
ـــ لقد تسلحوا واندفعوا في الشوارع في هذه العاصفة الترابية العنيفة!

٢

الفرسُ التي كانت تندفع في الصحراء لا تلوي على شيء، والإرهاقُ الشديدُ الذي بدا على الفارسِ لم يمنعهُ من الاندفاعِ في أزقةِ الكوفة، مثيراً غباراً وكلاماً وهياجاً.
بضعة مجالس كانت منعقدة ويجري فيها كلامٌ صاخبٌ، وسرعان ما قذفتْ روادَهَا إلى الشوارع، ومضت عيونٌ عديدة إلى قصر الوالي، وتدفق الحراسُ ورجالُ الشرطة والجمهور..
ـــ لقد ثار أهلُ مصر ونحن راقدون!
ـــ ماذا يبغي هذا الفارسُ القادمُ من هناك؟
ـــ إن شرطة الوالي تبحثُ عنه!
ـــ أين اختفى؟ يُقال إنه دخلَ أحدَ البيوت!
ـــ أهو بيتُ صعصعة؟
ـــ لا، صعصعة معتكفٌ.. لم يعد يقيمُ وزناً للهرج!
ـــ بل يُقال إنه أعتقل!
ـــ إذن أين ذهب وأية رسالة هذه التي يحملها؟!
ـــ أصبحت العامة تتناقل الرسائلَ.. يا للعجب!
ـــ ويا للخرابِ القادم يا رجل!
ـــ أيريدُ هؤلاءُ العوامُ أن يحكموا؟!
صخبٌ وكلامٌ مستمر، وعسكرٌ يبحثون في الدروبِ، يطرقون أبواباً أو يدخلون فجأة، وبعضهم يقترب من ثلة الطابور ويرونها تحيطُ نفسها الآن بجمهور حاشد.
سلمان وجمران وحامد واقفون بين الناس، الحماسة التي تفجرَت بسرعة شديدة كانت مذهلةً، بدأ الترابُ الذي انهال على أجسامهم في الصمت الطويل والسير العنيف يتساقط، جمران انزوى طويلاً وأصيب بخيبة وحزن، وعاد لعمله، وحين جاءت الأخبار وانتشرت أصيب بذهول وحيرة (فماذا يجري حقاً؟ هل سيعمل المصريون شيئاً في بلدهم وماذا عن الكوفة؟ بل ماذا عن المدينة وهل سوف تسكت؟!)، وراح يخاطب سلمان بين ذلك الحشد المضطرب المتكلم:
ـــ الرجلُ جاءَ إلى هنا واختفى؟
ـــ يقال بأن رجلَ شرطة ألقى القبض عليه قبل أن يبلغَ الرسالة!
ـــ أتعتقد أنه مسجون الآن!؟
ـــ لم لا؟
ـــ وهل هي رسالة مهمة إلى هذه الدرجة وماذا يوجدُ بها؟
ـــ لو لم تكن مهمة لما سار كل هذه المسافة الطويلة المرعبة!
ـــ رجالُ الشرطة يلتفون حولنا ويحدقون بنا؟!
ـــ إنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً تجاه هذا الحشد الهائل!
راح جمران يمشي بين الحشد ويسأل. نتفٌ من الجملِ تتطايرُ وتتشظى، الكثيرون سمعوا خبرَ الثورة في مصر، لكن من أين؟ راح بعضُهم يقولُ له بأنه شاهد الفارسَ وهو يدخلُ المدينة، وأضافَ بعضُهم بأن ثلة من الحرسِ صادف مرورها حينذاك، لكن الرجلَ تمكنَ من الهرب،

وربما هو مختبئٌ الآن، يغدو الكلامُ في هذا الوقت خطيراً، وللشائعة أكثر من مائة شبح، واسم الأشتر يتردد ويغدو كتيبة رهيبة، والحقيقة وحدها المطر الكثيف الذي يغسلُ الغبارَ، وأيّ صمتٍ قد يجعلُ كلَّ هذا الجمهورَ الغفيرَ يعودُ إلى منازلهِ، فلا بد في هذه اللحظةِ من فعلِ شيءٍ، حتى لو قذفت بنفسك من علٍ، وأي سقطة على الأرض الصلدة قد تكون وخيمة كتلك الرحلة المريرة في الصحارى والعودة لسكاكين الوليد بن خالد وتغلغلها في الأجساد. لكن السقطة بين سواعد الناس مختلفة..

راحَ يتساءلُ بمرارةٍ (هل الكوفة أقلّ من مصر؟ الجسدُ الآن يمشي على حدِّ السكين. والأبُ الذي تعذب في الصحراء ثم مات في تربةٍ غريبةٍ لا يزالُ يحضر إليّ ليلاً لا يريد أن يخرجَ من روحي.. الآن سأكونُ أنا الضحية!)، واقتربَ من ثلته، وراح ينقلُ إليها بعضَ ما يدور، ثم قال:

ـــ علينا الآن أن نكتّفَ هؤلاء الحراس، عددهم قليلٌ..

ـــ ماذا تقول؟ هل جننت؟

ـــ هو العملُ العاقلُ الوحيد. نكتفهم ثم نهجمُ على السجن ودار الوالي.. لنُخرج ذلك الفارس أينما كان!

ـــ وبعد ماذا سنفعل؟

ـــ هل تريد أن نقلدَ المصريين؟

ـــ لا خيار لنا. قبل أن يتفرقَ الناسُ وقبل أن يُدفن الفارسُ الرسول.. هيا لم يعد ثمة وقت! ماذا تقولون؟

ـــ أهلُ الكوفة إذا تعرضوا لأي ضربة قد يطيرون إلى أسرتهم!

ـــ يتجمعون بشدةٍ وهولٍ ثم يهربون ناسين نعالَهم ورجولتهم!

ـــ لكنهم الآن مغمورون بغضبٍ لم نشهدهُ من قبل!

ـــ هيا أيها الإخوة فإما النصر أو الشهادة!

ـــ على بركةِ الله!

راحت الثلة تتكلمُ مع المحيطين بها، وتجذبهم إلى فعلها، والتساؤلاتُ والاحتجاجاتُ تدافعتْ وتداخلت، لكن الحماسة كانت كبيرة، وبغتة تحول هؤلاء الناس إلى إعصارٍ يندفعُ في الطرقِ ويقلعُ الأحجارَ الثقيلة!

٣

الغبارُ يملأ السماءَ، جعلَ النهارَ كأنهُ ليلٌ، وتكادُ النجومُ أن تلمعَ، وليس ثمة هدوءٌ في القلب، ولا راحة في العقل، وهو الخليفة يسيرُ في الشارعِ والناسُ تحدقُ فيه وتقف إذا مر وتسلّمُ عليه:

ـــ اجلسوا.. اجلسوا!

ـــ عشتَ يا أمير المؤمنين..

ـــ هل ثمة حاجة نقضيها لك؟

ـــ لا لكنني أزورُ أخي علي بن أبي طالب..

ـــ نعم الإخوة بينكما..

ما بالُ هؤلاء الناس الفقراء البسطاء مثل العسل وأولئك التجار الكبار مثل الحنظل، كلما أعطاهم شيئاً طالبوا بالمزيد؟! الرجالُ يغطون نصفَ وجوههم. سحبُ القلق والرعبِ والرملِ تخيمُ على بعضِ الأمصار.. كتلٌ غامضة من الغبارِ والكراهيةِ تتدافعُ على الصحارى. اللهم حُسْنَ الختام!

يتقدمُ إليه رجلٌ يطلب مساعدة فيوجههُ لبيتِ المال. امرأة تشكو زوجها فيدعوها لأحضاره. خادمهُ وراءهُ يسجلُ ويوزع.

لم يعد العباس موجوداً ليثور، صحابة عديدون رحلوا، وبعضهم اعتزله، ولم يعودوا حتى يزورونه. ما الذي جناه؟ يريدون إزاحة أقربائه، هل يخرجُ الظفرُ من لحمهِ؟ هل يقطعُ صلتهِ بأخوالهِ وأعمامه وأبنائهم؟ حتى السيدة عائشة تنقده! أما طلحة والزبير فهما لا يكفّان عن إلقاءِ الحطبِ في النار. يا إلهي كيف تحولَ الكثيرون إلى الرغي والحسد! اللهم حسن الختام!

يوجهُ الخادمَ للاستئذان فيأتي بعد قليل ويقول:

ـــ عليّ يرحبُ بزيارةِ أمير المؤمنين..

يدخل على أبي الحسن الذي يسلمُ عليه بهدوء صلب. توارت البسمة منه، ورحلَ التبسط، وغدا مثل الأيام مكفهراً، يقول:

ـــ يا أبا الحسن مالكم تنتقدونني وتعيبون سيرتي؟ ماذا فعلتُ أرشدوني أنا طوع أمركم!

جلسا وأحاط بهما أبناءُ علي. قال عليّ:

ـــ يا أخي عثمان أنت بك صفة حميدة هي مساعدة الأهل وتقريبهم إليك، وهي صفة حميدة حين تكون خارج الحكم، أما إذا كنتَ فيه وتحولت المساعدة إلى الغَرف من بيتِ المال وإعطائهم فلا تكون مساعدة بل سرقة!

ـــ والله يا أخي أغلب هذا المال من حر مالي!

ـــ وأي أعراس هذه التي تقيمونها لبناتكم وأولادكم كأنكم ملوك؟!

ـــ أتحاسبني على أفراح خاصة بنا نأخذ فيها من الدهر لحظة سعادة؟!

ـــ هذه يقومُ بها أي تاجر أو عامل لكنك أنت أمير المؤمنين تعاضد مثل هذا اللهو والإسراف في المال؟

ـــ لدينا الكثير منه، هل سوف نأخذه معنا إلى قبورنا؟ لماذا تجعلون الحياة كالحة مريرة متقشفة؟!

ـــ افعل ما تشاء وأنت لست حاكماً مسؤولاً عن ملايين من البشر الفقراء!

ـــ أتريد عزلي لكي تأخذها؟
ـــ لا أريدها وتعذب أنت بها!
أحس أنه أوصل الكلام إلى نقطة لم يكن يريدُ الانجرارَ إليها، ودهشَ لأن هذه السبل تجعلمها متقاطعين دائماً، وماذا يريدون؟ زمنه خير زمن، لا مجاعات فيه، لا أوبئة تتخلله، لا حروب فيها هزيمة، الناسُ سعداء إلا الحاسدين.. فماذا يريدون؟ لكنه لا يريد أن يقذف بهذه الجمل الكبيرة، الحادة، سوف يمضغها كالشوك في روحه، وحتى لو جاء المتمردون العصاة فسوف يهزمهم بكلماتهِ وصدرهِ المتسع..
يقولُ بهدوءٍ وألمٍ:
ـــ يا أخي أبا الحسن إنني والله أعتبرك أفضل مني، وأعلم مني، وإنني استشيركَ دوماً..
ـــ لكنك لا تأخذ برأيي، تطبقه يوماً ثم تنساه شهوراً!
ـــ ماذا تريدُ أن أفعل الآن؟
ـــ لا أريد منك سوى شيء واحد هو أن تبعدَ أقرباءك عن مالِ الناس وحكمِ الناس!
ـــ آه...
ـــ ماذا بك تتلجلجُ؟ أتستطيعُ أم لا؟!
ـــ كيف.. كيف أقومُ بذلك؟ زوجاتي، أهلي، عشيرتي، كل يومٍ أحدثهم، كل لحظة.. هذه أمورٌ لم يفعلها عمر بن الخطاب نفسه..
ـــ عمر استعمل بعض هؤلاء لكنه كان حازماً شديداً معهم!
ـــ سوف أحاول.. وأنتم أعينوني.. أنتم أيضاً أهلي ونحن كلنا مسلمون متآخون ولن تدخلَ الفتنة بيننا إن شاء الله..
كانت ثمة ضجة عند الباب، وذهبَ أحدُ أبناءِ علي ثم جاء وقال:
ـــ مروان بن الحكم عند الباب..
قال عثمان:
ـــ فلينتظر هناك!
غادرَ المجلسَ بأسى، يبدو الآن أنهُ قُربَ هوةٍ، تفتحُ ثغرَها الواسعَ شرهةً إلى لحمهِ، وجاءَ الظلامُ كثيفاً، لكن النجومَ لم تظهرْ، وأصبحَ الغبارُ يلمسُ جلدَ وجههِ، ولاصقهُ مروان وراحَ يسألهُ عما دارَ فأوجز لهُ ما قيل، وهو متأكد بأنه أنصتَ برهافةٍ إلى حديثهما، وسألهُ عن رأيهِ فقال:
ـــ هذا هو الدهاء!
ـــ ماذا تقصد؟ لا أرى في علي سوى التواضع والحكمة!
ـــ هناك أشياءٌ يا عمي متوارية من الصعبِ الوصول إليها لأول وهلةٍ!
ـــ مثل ماذا؟ إلى ماذا تلمحُ؟!
ـــ لو أنك طبقتَ شيئاً قليلاً مما قالهُ لابتعدَ عنكَ معاوية وابتعدَ ابن أبي السرح الذي يناوشهُ العصاةُ في مصر!
ـــ هل تقصد أنه يثيرُ الفتنة بيني وبين معاوية..؟
ـــ أنا لا أقولُ ذلك، لكن من يستطيع إبعاد معاوية عن الحكم الآن؟ أي جيشٍ لديك قادر على انتزاعهِ؟ ثم إذا ذهبَ معاوية الذي صار سندك الكبير الآن في الحكمِ فسوف يحيط بك بنو هاشم.. وتكون خسرتَ أقرباءك ومعاونيك في الشدائد، وقربت أناساً طامعين منذ زمن بعيد بالخلافة!

٤

كان معاوية يمشي في البلاط مغمغماً متوتراً:
ـــ أيتها السلطة الملعونة! كلما اقتربنا منك نأيتِ، مثل امرأة جميلة ذات دلالٍ ومكر، علينا أن ننحني لهؤلاء الرثاثِ من البشرِ وندانهم ونتملقهم لكي نصعدَ فوق ظهورهِم إليكِ، علينا أن نغمسَ أيدينا في الدمِ والتآمر ونقابلَ الجواسيسَ في الظلام، ونملأ جيوبَ الطامعين الدهاةِ بالمال، ويفكرُ العقلُ بالأصدقاءِ النائين لكي يجلبهم إلى خيوطِ يديهِ، لكنهم حينئذٍ يجيبون إجاباتٍ غامضة، ويحاولُ أن يتقربَ إلى أعدائهِ فقد ينشأ منهم خطرٌ مخيفٌ عليهِ!
لم يعدْ ثمة تفكيرٌ إلا في هذه العاصيةِ المتقلبةِ كأنها راقصة أمسكتْ بالخناجرِ وراحتْ تلعبُ على الجلود، الناسُ تتدفقُ لكنها لا تأتي إليّ، ها قد كبرتْ موجة الطوفانِ من صغيرةٍ لا تكاد تُرى إلى سفينةٍ زاخرةٍ بالشوكِ والصخورِ والجن!
يدخلُ عليهِ الحاجبُ ببطءٍ مُحدقاً فيه، خائفاً أن يكونَ قد اقتحم القاعة، فيتطلعُ إليه معاوية ويدعوه كأنهُ يسحبهُ بأصابعهِ، ويدورُ همسٌ:
ـــ ما وراءك؟
ـــ يا سيدي إن المصريين قد اندفعوا الآن في الحجاز لا يلوون على شيءٍ والبصريون والكوفيون يلحقون بهم!
ـــ أبهذهِ السرعة؟!
ـــ نعم، وفي مصر ظلّ بعضهم يناوش عبدالله بن أبي السرح غير قادر على إزاحته..
ـــ وماذا عن صاحبنا، هل استطاع أن يقتربَ من محمد بن حذيفة الذي تركه المتمردون لكي يحكم مصر كما يزعمون؟
ـــ نعم صار يأكلُ ويسهرُ معه. الرجلُ متلونٌ ومتقلبٌ، لم يكد يصدق أنه استفرد بالجماعة هناك وأنه مرشح لحكم مصر، فغدا كالمجنون!
ـــ نعم، وهجُ السلطةِ.. أعرفهُ!
ـــ راح منذ الآن يعيّنُ الوزراءَ والخدم، ويفكرُ بجبايةِ مصر، ويقول بأن خراجها قليل، وابن أبي السرح كان يعصرُها عصراً!
ـــ هذا خبرٌ جيد. فلم يتحول محمد إلى صخرة صعبة بل غدا إنساناً عملياً يمكنُ التفاوض معه. أحبُّ هذا النوعَ من الأفاعي!
ـــ لكنه يا سيدي ذو طموح كبير، لو أنه حكم بقوة صارت مصر ممتنعة علينا!
ـــ لا تنس أن أصدقاءه لم يتركوه وسوف يعودُ أغلبهم فيتنازعون.. أمامهم وقت طويل نكون فيه قد حضرنا رجالنا!
ـــ الأغرب يا سيدي هو تحولات ابن أبي السرح نفسه..
ـــ ماذا به؟ أيكون قد تمرد على وليّ نعمته أمير المؤمنين؟!
ـــ لا لكنه أظهر الزهد والورع فجأة!
ـــ هي حيلة عادية لخداع العامة في مثل هذه الظروف الصعبة!

ـــ ليست حيلة بل يبدو الرجل وكأنه لا يعبأ بكل تلك الأموال، مكتفياً بشيءٍ قليل، زاهداً في السلطة نفسها!
ـــ وهل تركها؟
ـــ لا لكنه يقول بأنه سيكون مع عثمان إلى آخرِ لحظةٍ من حياتهِ!
ـــ وهل يقدرُ على إرسال شيء من العسكر للدفاع عن الخليفة؟
ـــ إنه لا يكاد يحمي نفسه!
ـــ شيءٌ غريبٌ مدهشٌ كيف.. كيف.. يدع الصولجانَ رجلٌ عانقهُ لحظة..
ـــ ماذا تقولُ يا سيدي، لم أفهم!
ـــ اذهبْ أنتَ الآن!
يمشي معاوية إلى الكرسي، يجلسُ باسترخاءٍ: (أجل.. كيف يزهدُ من تربعَ على العرشِ ولو لحظة واحدة فيه؟ وراءه البساتين والنساء والأموال.. يصعدُ كجائعٍ إلى شجرةِ الحياة، يصيرُ جزءاً من الخلود! ثم يعود إلى أن يكون خرقة تمشي في الأسواق، ونعلاً متآكلةً على شوارعِ الحصى والتراب؟! والأسوأ حين يحاصرك جيشٌ يتشهى لحمك كخروفٍ سمين، ويتدفقُ على قصرك عصاة متمردون لا يخافون من النارِ والسيوفِ! اللهم أعطنا نهاية عظيمة باذخة!).

الفصل العاشر

صحراءُ شاسعة ممتدة أمامهم، جبالٌ هائلة ملونة، طرقٌ كانت قد امتصت الغزاة ولفظتهم كجيفٍ. الحماسة الاندفاعية الأولى تخثرتْ أمامَ زحفِ الرمالِ وتلالِ التراب التي لا تنتهي.
تنتابهم مشاعرُ شتى ومخاوف وقلقٌ وغضب، ويستغربون كيف عادوا للجزيرة العربية وكانت أمامهم بساتينُ الأمم، ويتساءلون هل هم عصاة أم غزاة أم طلابُ حقّ؟!
حشدٌ تصفعهُ الريحُ، وتسفعهُ الشمسُ، ويعضهُ الجوعُ والعطش، ينقذهُ النهارُ من الأسئلةِ ويضعهُ الليلُ أمامها. نيرانٌ هنا وهناك، وجوهٌ تلمعُ في الضوءِ وأجسادٌ تتوارى من البردِ، وعيونٌ تخشى، وجباهٌ تصلي بخشوع، كلامٌ متناثرٌ، ألفاظٌ حادةٌ قليلةٌ متفجرةٌ، ثم اضطرابٌ وأسى، وتتسعُ الصلواتُ، وتتكاثرُ قراءةُ القرآن..
ـــ هل ما نفعلهُ خيرٌ؟
ـــ طلابُ حقّ أم طلابُ انتقامٍ؟!
ـــ هل هفواتُ الخليفةِ تستدعي هذا الجحفلَ من الرجال؟
ـــ تركنا أهلنَا..
ـــ بل قلْ تركنا الثغورَ للعدو!
ـــ جئنا لنصلحَ فساداً كبيراً يا رجال!
ـــ من نحن لنصلح هذا؟ هناك كبارُ الصحابةِ لم يرفعوا سيفاً!
ـــ يا إخوتي عليكم بالصبرِ ونحن الآن قد عزمنا على أمرٍ ويستحيلُ أن نتراجعَ عنه!
ـــ مصر ليست بعيدة من هنا..
ـــ اخرسْ، لا تحبط العزائم أيها الخائر!
وتنشبُ معركة بالأيدي، وتُسمع ألفاظ حادة وشتائم، وتنتبه ثلةُ الرجال المتناثرة للصراخ، وتجري نحو النيران والرمل المتناثر، ونحو الوجوه المتفجرة المتغضنة، اليابسة، وتمسكُ أيديَها المنفلتة، وتعيدُها للأبسطةِ المهترئة..
يتحلق شبابٌ حول عبدالله ومحمد ويحدقون في عيونهما التي بدت هي الوحيدة في تلك العتمة:
ـــ نحن نمضي هكذا بلا دليل!
ـــ أخذتنا الحماسة وحين دخلنا هذه الصحراءَ الهائلة أدركنا مهمتنا الخطيرة الصعبة!
ومحمد ذاته يترددُ وهو الذي قادهم من الأزقةِ المعتمة، ومن وحلِ المستنقعات، ومن الغرفِ المغلقة، والآن انفتح المدى الهائلُ وبانت المهمة الخطيرة المرعبة!
يقولُ عبدالله بن سبأ بهدوءٍ عجيب:
ـــ سنصلُ للمدينة وسنجبرُ الخليفة على التنازل، ولا يمنعنا من ذلك كلّ جبالِ الحجاز وغابة سيوفها وخناجرها!
ـــ هكذا ببساطة (نجبر). من نحن؟ من يعرفنا.. مجردُ جنودٍ كنا نغزو ونحرسُ الثغور!
ـــ هناك سوف يقفُ أمامنا وفي وجوهنا شيوخُ المهاجرين والأنصار، وكلّ كلمة يقولها واحدٌ منهم تغدو كتلة من صخورٍ تنزلُ على رؤوسنا!

ـــ كلّ شيء يبدأ من المجهولين والمغمورين فيما استرخى علية القوم في كراسيهم وفي بيوتِهم المسوّرة، لا يهدأ نبضُ الأرضِ ولا تتوقفُ عطايا السماءِ، ومن هؤلاء الفتيةِ سيظهر أعلامٌ، وأنتم ستصبحون أمراءَ دولٍ وقادةَ فتوحٍ كبرى تجلسُ تحتكم الممالكُ طائعة تفتحُ كنوزَها!
يصمتون فجأة:
ـــ ذلك خليفة طاعنٌ في السن، تكفي صرخة واحدة لتزيحهُ ويسقط عن الكرسي الذي أخذهُ دون وجهِ حق. ثم يأتي الخليفة الحق، وتنطلقون لتحكموا الدنيا!
ـــ وماذا نفعلُ مع هؤلاء النفر المشاكس منا؟
ـــ انتشروا بينهم وأبصروهم بالآفاق الكبرى لنا. ستُفتحُ لكم الشام ويخضعُ العراق وتتحولُ بيزنطيا إلى خادمةٍ تغسلُ الترابَ من أقدامكم..

٢

كان يقرأ القرآن بنشوة.
روحهُ ليست على الأرضِ اليابسةِ المجدورة الوجه، بل تحلقُ في الذكريات العظام والأحلام الكبيرة، حتى انتهى من السورة، ورأى نورَ الصباح يعمّ الحديقة، وزوجته نائلة تدخلُ عليه وتجلسُ قربَهُ وتطمئنُّ عليه.
ـــ تركتني لتصلي وتقرأ..
ـــ لم أستطع أن أنام، الشيخوخة المتعبة لا تطيلُ الرقادَ، كأن الليلَ ومضة بارقة..
ـــ لك طول العمر إن شاء الله.. ها هو مروان يدخلُ علينا مزعزعاً نداوة الصباح!
ـــ مهامّ الحكم التي لا تنتهي!
دخلَ مروان مكفهراً، كان قد نامَ طويلاً لكنه نهض، فاتتهُ صلاة الفجر، لكن عيونهُ الكثيرة المبثوثة لم تنمْ، وأيقظته..
ـــ أميرُ المؤمنين، لدي أخبار لا تسر..
ـــ قلْ ما عندك!
ـــ الزاحفون من مصر وهم كثر التحموا بالزاحفين من الكوفة والبصرة، وصاروا جيشاً كبيراً!
ـــ وما العملُ في رأيك؟
ـــ الآن علينا تجهيز جيشٍ بأقصى سرعة، وننقضُّ عليهم وهم غافلون في ليلٍ أو نهارٍ، لم يعدْ ثمة وقت، وإذا دخلوا المدينة حاصرونا وكتفوا أيدينا!
نهضَ عثمان بغضب:
ـــ أتريدني أن أنقضّ على أبنائي وأهلي.. أي رأي هذا؟!
ـــ هو الرأي السديدُ يا أميرَ المؤمنين.. لقد تركهم معاوية يتسربون من مصر والعراق دون أن يوجهَ كتيبة من عنده ويقطعَ سيرهم!
ـــ أنت تتقلبُ في آرائكَ بشأنهِ، لكنه لا يستطيع ذلك دون أمري وإلا لغدا هو الخليفة. يصيرُ هو الآمر الناهي، فما نفعي عندئذٍ؟ لكني لستُ معاوية، لا أقبل بتوجيهِ الجيوش للناس.. أتعتقد بأنني عاجز عن ذلك؟ لكني لا أريد أن أسفك دم إخوتي. هو أمرٌ سهل، وكنتُ أقدر عليه قبل ذلك، خاصة أننا لا نعرف نواياهم.. لكني لستُ متردداً في هذا، وإذا كانوا هم يريدون استخدام سيوفهم فصدري مفتوح لهم!
ـــ هذه ليست سياسة حكم، عليك بالبطش بهم الآن!
ـــ اسكتْ يا مروان واذهب!
كان متوتراً، حزيناً، كفارسٍ يُشدُ بحبالٍ من جهاتٍ عدة، تطالعهُ نائلة بودٍّ شديد، ولم تضفْ شيئاً إلى كلماته، وراح يحدقُ في كتابِ الصحراءِ المفتوحِ على الكراهية والبطش، ويتساءلُ عن هؤلاءِ المجهولين الذين اندفعوا بكرهٍ وحقدٍ ضده، يصرخُ في الفراغِ والصمتِ: إذا كنتم تريدون الذهبَ والمالَ فالخزائنُ مفتوحة لكم، حتى مالي وزعوهُ على الفقراء! تقولون ضعيف أنتم الضعفاء الذين لا ترون أبعد من أنوفكم! تعتقدون أن كلّ شيءٍ بالقوة والدم!
يجلسُ ويحدقُ في المرأة:

ـــ إذا كنتِ يا زوجتي خائفة فتستطيعين أن تغادري هذا المنزل، إنني لا أحجرُ عليك، ولا أريدُ تعريضك لمكروهٍ!

تقتربُ منه وتلاطفه:

ـــ جئتُ إليك برغبتي وأحببتك أكثر حين عشتُ معك. لم يعاملني أحدٌ هكذا.. فكيف أتركك وأنت تجابه هذه الغوغاء!

ـــ أنت من الحب والعزاء الجميلين اللذين ساقهما الله إليّ، ربما ليعزيني ويجعلني قرير العين في هذه اللحظات الغريبة الرهيبة!

ـــ لن يحدثَ شيءٌ إن شاء الله، وما هي سوى كلمات منك ومن الصحابة حتى يتفرق هؤلاء الفتيان الأغرار!

ـــ سأذهبُ الآن، لدي رسائل وأعباء وطلبات من كلِّ البلدان!

٣

ينظرُ محمد بن أبي بكر إلى المدى المعتم، جبالٌ تحدقُ بهم كأنها أشباحٌ كبرى، ثم تتقزمُ وتصغرُ حتى تغدو تلالاً وهي تنحدرُ نحو المدينة. حتى الحجر يتضاءلُ هنا وينحني. وهم سيدخلون شاهرين أسلحتهم، متباهين بقوتِهم على شيوخ قريش والأنصار!

يسيرُ ويرجعُ حتى غدتْ حركتهُ مزعجة لعبدالله:

ـــ ماذا بك، غداً الفجر سوفَ نقتحمُ هذه البيوتَ والقبور!

يقف ويتعالى صوتهُ:

ـــ ماذا بك أنت.. ألا شيء يثيرك ويجعلك تقلقُ وتنزعج؟!

ـــ هدئ أعصابك.. غداً ستكون قائداً عظيماً، أين منه الإسكندر ذو القرنين!

ـــ تستطيع أن توزعَ الألقابَ كما تشاء، لكنك أنت هنا قابعٌ في الظلام، لا أحد يعرفك هناك في نور المدينة وتحت شمسها الحارقة.. أنت تدفعنا لنواجه ملأ الإسلام الكبير بينما أنت جاثم هنا في كهفٍ أو خيمةٍ ولا نعرفُ ماذا يدورُ في رأسك!

نهضَ عبدالله بحرقةٍ. لا زال فتية قريش يملأهم الغرورُ وتعفنهم الكبرياءُ. غداً لن يكون لهم شأنٌ كبيرٌ! هو يعيشُ في الظلام، ربما مثل ضبٍّ في غارهِ يتمنى حشرة، أو مثل خفاش يحلمُ بالدم في كهفه!

قال بتوتر:

ـــ انظرْ أين كنا بالأمس نتجادلُ بخفوتٍ في غرفةٍ قرب النيل وحولنا جيوشٌ من العيونِ والبعوض، واليوم نحن لدينا جيشٌ وفي يدنا حكم هذه المدينة. ستخضعُ لنا ثم نخضعُ كلَّ شيء لإرادتِنا! أحلامُنا تتحققُ.. تتحقق وأنت خائف!

ـــ أية أحلام.. يا أخي.. غداً سأكونُ خجلاً وأنا أنظرُ في عيني علي بن أبي طالب هذا الرجل الذي رباني، وأتوارى خجلاً أمام عثمان.. نفسه..

ـــ أنت تقول ذلك، من أي معدنٍ صُنعت؟ كنتُ أظنكَ جبلاً!

ـــ أنت لم تعشْ معهم، لم تتربّ على أساطيرهِم وقاماتِهم الشاهقة، كنا صغاراً ونحن نسمعُ بالوقائع الكبرى.. الآن جئنا لنقوّمَ أولئك الناس!

ـــ ما بالك تنظر وتتجمد في الماضي؟ هل سيكونُ ذاك نهاية التاريخ، إنهُ ليس سوى بدايةٍ بسيطة، أمامنا مهامّ جسامٌ وأولئك الشيوخ سيتقزمون أمامها!

ـــ حسبك من هذا الهراء والخيلاء!

ـــ أتقول لي ذلك، أنا الذي فطمتك عن حليب الجهل والخوف..؟!

ـــ لم أرَ منك سوى كلام.. ونحن نزحفُ في التراب والوحل!

ـــ بل أنت تمشي نحو النور، نحو قمة التاريخ!

ـــ حتى الأشتر أصيبَ بالتردد وعزم على ألاّ يشاركنا في مهاجمة الخليفة.. نحن مضطربون ومرعوبون من السير في دروبها!

ـــ لا بد أن نمضي بسرعةٍ خاطفة ونضربَ ضربتنا المفاجئة القوية قبل أن يتدخل معاوية، ويزحفَ بجيشٍ هائل! هو وحده الذي يستطيع أن يصدّنا الآن، ولا شك أن عيونهُ تحدقُ فينا،

لكنها لن تعلمَ بنا خلال هذه الساعات ولن تستطيع إيصال الأخبار.. أرأيتَ كيف أن الحسمَ والإسراعَ مهمان الآن!
ـــ الأشتر أيد ما نفعل لكنه الآن منكفئٌ يعيشُ حيرة غريبة ويقول بأن العمل هو في الأمصار لا هنا!
ـــ ربما لأنه يخجل من رؤية عثمان الذي التقى بهِ وخدعه الرجلُ بدهائه وتظاهره بالطيبة والتسامح!
ـــ لا تقل ذلك عن عثمان، أنت لا تعرفه! أنت تحارب شبحاً في رأسك!
ـــ إذن ماذا به؟
ـــ إنه يقول لماذا العنف مع أهلنا؟
ـــ لم يحدث شيءٌ حتى الآن!
بدت النجومُ مغلفة بثوبٍ أبيض شفاف. وصارت كوجوهٍ تحدقُ فيهم. ومشى عبدالله وهو يتطلعُ فيها. ثمة مخاض ومرجل في نفسه يشتعل لكن يخشى أن يفتحه فتندلق الحممُ على هذا الشاب الهش. نعم، إنه لم ير عثماناً هذا، ويكفي أنه تاجرٌ كبيرٌ ومن قريش، وهم كلهم مجرد قنطرة حجرية متآكلة لأشعة سماوية، تتشكلُ الآن الروحُ، لكن ويا للغرابة من خورٍ وحيلٍ و.. خسةٍ!
ـــ أنا أعرف عثمان لكنني لن أراه..

عثمان يقف فوق حشد الصحابة والمصلّين واجماً. العيونُ الكثيرة الواسعة المذهولة تحدقُ به. لا أحدَ معَهُ من أهله. ليس ثمة جيوشٌ لصديق. المدينة مفتوحة للغزاة المسلمين! هو الخليفة وأهلُ بيتِهِ أمام المجهول!

قاماتٌ شامخة ترتفعُ وتؤنبه، خيوطٌ عديدة نسجها تبدو له الآن ذائبة من وهجِ هذا التجمع الحاشد الساخن، يذكرهُ بالترحالِ للحبشة، والعذاب، والهجرة، وزغاريد الانتصاراتَ، لم يُعدْ لهُ أهلٌ إلا هؤلاء، هي الرفقة العظيمة التي كلما دخلها شعرَ بالراحةِ والانسلاخِ من الصغائر، فتصعدُ نفسُهُ إلى الأعالي!

ـــ تأنيبكم عنيفٌ وشديدٌ!

ـــ هذا ما جنيته على البلاد بضعفِكَ وبإعطاءِ المال بدونِ وجهِ حق!

ـــ أعترفُ لكم الآن بتقصيري في بعضِ الأمور، لكن هل تتركونني لأني أعطيتُ بضعة أفراد مالاً، هل تدعون هؤلاء الجند القادمين من الثغور يفرضون علينا ما يريدون، والمدينة تصبحُ ذليلة خاضعة لهم! تتركون خليفة المسلمين بأيدي المجهولين!؟ هل تتركونني وحدي وأنا قلتُ لكم إنني مقصرٌ وتائبٌ ونادمٌ على بعض ما فعلته.. ألا تصفحون عني وأنا الذي بذلتُ من أجلِ الناس ما بذلت؟ هل ستسكبون دمي كما سكبتُ الآن دموعي!

ثمة تأوهات في المسجد وصيحاتٌ خافتة.

ـــ هل تساوونني بالمجهولين وطالبي الثأر والأشرار؟ أنا الذي لم أرفعْ سوطاً عليكم وبذلتُ كلّ جهدي لمساعدتكم؟ هل بسبب أخطاء معينة تنسون جهادي؟!

زادت الغمغمة وتحولتْ إلى أصواتٍ قوية:

ـــ لا!

ـــ ألا تقبلون دموعَ شيخٍ أعطى كلَّ شيءٍ لأجلِ رفعتكم ورفعة هذا الدين؟!

ـــ نعم، نعم!

ارتفعتْ هتافاتٌ هائلة، وذلك الجسمُ المفصولُ عن الحشدِ ذابَ في الهدير وفي فيضانِ السواعد، ومطرِ الدموع، وانفتاحاتِ الصدورِ والأكتاف!

٥

وهم يتقدمون باضطرابٍ وخشية نحو المدينة رأوا سحابة من غبارٍ تسدّ الأفقَ عليهم. تفجرت الأسئلة بينهم، وتوقفوا، وتلاسنوا:
ـــ تلكأتمْ وخفتم فها هي المدينة بنفسِها قدمتْ إليكم!
ـــ أهذا جيشٌ أم ماذا؟
ـــ هل سنحاربُ إخوتنا؟!
ـــ هذه أول واقعة بين المسلمين!
ـــ لا كان هذا اليوم البغيض!
وجومٌ وذهول، والصفوفُ الخلفية التي كانت مكتومة اللسان راحتْ تغمغمُ، وهي لا تعرفُ هل تخرجُ سيوفها من أغمادِها أم تنتظرُ الذبح، تتطلعُ في سحابةِ الغبار وتسمعُ سنابكَ الخيولِ تهزّ الأرضَ، وتحدقُ في قادتِها الشباب منتظرة كلمة دون أن تحصلَ عليها..
ـــ ماذا نفعلُ، هل نستعدّ لهم؟!
ـــ لو رمونا بالسهامِ ما رفعنا السيوف!
وتتكشفُ الجماعة المتقدمة شيئاً فشيئاً، ويظهر علي بن أبي طالب في حشدٍ من المهاجرين والأنصار، فانتابتهم الدهشة والفرحة والمخاوف والقلق، كانت رؤية علي أشبه بصاعقةٍ نزلتْ عليهم، فتحجرت السيوفُ وتجمدت الأفواه.
ها هو ينزلُ من على الفرسِ ويتقدمُ بهدوءٍ وصلابة محدقاً فيهم بين الغضبِ والذهول، منتظراً صحبه لينزلوا ويرافقوه، وبدت الصحراءُ خرساء، وتوقفت السماءُ عن إثارةِ الرمل، وراحوا يتقدمون نحوهم، لا سيوف لديهم، ولا سهام، بل غضب عنيف يتفجرُ حالما رأوا سيوفهم وخناجرهم:
ـــ تسلون سيوفكم على مدينة الرسول؟!!
صمتٌ فظيع، محمد بن أبي بكر أشدهم خجلاً، وتململ عبدالله بن سبأ وهو يرى علياً فانجرف نحوه بحب هائل، وحزن غامر، وراح يصرخُ في نفسه.
قال الإمامُ:
ـــ جئتم كجيش لتفتحوا وتغزوا؟!
أخذت ألسنتهم تنفرجُ من الحبس، ارتفعتْ غمغمتهم، وبكى بعضُهم، وتداخلت جملُهم المضطربة:
ـــ هل جئتَ أيها الصحابي الكبير لتدافع عن عثمان؟
ـــ نحن نطلب حقاً..
ـــ لكن لن نرفع سيفاً!
ـــ ما تقوله هو الحق والنبراسُ لنا!
راح علي يتحدث فيهم:
ـــ لقد جاءني عثمان وقال ساعدني يا أبا الحسن على وقف فتنة ستمزقُ الناسَ. وقال إذا كنتُ قد أخطأت فلا يجوز أن يقتحم بعضُ أهل الأمصار المدينة ويعيثوا فيها فساداً. لا يحل خطأ بخطأ

أكبر منه! ثم جلس في المسجد وخطب وتاب. فرضيتُ أن أجيءَ إليكم وأدعوكم للعودة إلى أمصاركم، وأن يعودَ عثمان كذلك عن أخطائه وتولية أهله المناصب.
كانت الجملُ مثل المياه التي أطفأتْ ناراً مستعرة في نفوسِ أولئك الحشد من الجنودِ والحراس في الثغور، ودهش عبدالله بأن كلّ بحرِ كلماتهِ نشف وتبخرَ في الصحراء، كأنه كان يخلقُ سراباً، فأين ذهبتْ ليالي الجوع والسفر، وها هو حلمهُ يخذلهُ، وراح يتمتمُ بين شفتيهِ وتنتقل كلماته للصفوف الأمامية:
ـــ كيف نعودُ لحاكم قتل بعض أصحابنا؟!
ـــ عبدالله بن أبي السرح.. قاتل!
كلّ جمرٍ كان ينطفئ وحلمُ التوغلِ في المدينةِ بالسيوفِ يتحولُ إلى كابوس، حين انفجرتْ جملة رهيبة من فم الإمام:
ـــ سوف يتولى محمد بن أبي بكر حكم مصر فعودوا على بركة الله. وأنتم أيها العراقيون سمعتم ما جرى فعودوا بسلامة الله إلى بلدكم!
يفكر عبدالله بحزن:
في العودةِ الرثة، في طريقِ الخيبة مات حلمُ النورِ النازل من السماء، ولم يكن سوى شهاب ضائع في العتمة العلوية، ويمضي العجوزُ جاثماً على كرسيه وهو يضحكُ عليه، وتناثرت شظايا الشهاب على رأسه، فأين ذهب حلمُ النبوة، ولماذا خذلهُ القدرُ واستوى تلميذهُ حاكماً وغدا هو حارساً أو جندياً في معيته! لكن مهلاً أليس هذا بعض حلمه؟

جلس عثمان ومروان في دار الحكم متساقطين من العمل والتعب.
كان جري لم يعهده الشيخ وخطب مطولة، بل وصراخ لم يعرف كيف خرج منه، والحشودُ التائهة من الناس، والنظرات الخائفة القلقة لهم أصابته بفزع هائل، وراح يتكلم بحدةٍ: كيف حدث هذا؟ جيش من المسلمين يغزونا؟ هل أخطائي إلى هذه الدرجة التي تبيحُ إعمال السيوف في الرقاب! يا للهول! أي تفكير شيطاني لدى هؤلاء الفتية النزقين؟!
عاف الأكلَ الشهي، ولم يعد النوم يهجمُ عليه كما كان يفعل طوال السنين الماضية. أمصرُ تريدُ أن تكون مثل الكوفة الحمقاء؟! ماذا إذن سيبقى من الهدوء والبناء؟
ذهب إلى علي، خطبَ في المسجد، اندفعَ لوجوهِ الصحابةِ في مجالسهم وبيوتهم، صاحَ فيهم (تنتقدوني لمراع أجرتها على قريب لي؟ خذوها وخذوا الأموال معها! لا تنتقدوني إلا في بقاء معاوية؟ عمر هو الذي ولاه.. من يستطيع أن ينزعهُ منكم؟! وهذا ابن أبي السرح سوف أعزله.. ماذا بقي لديكم إذن؟!).
كلماتهُ المتدفقةُ، تحولهُ من شيخٍ إلى رجلٍ نشط، الهدوءُ الثقيلُ الذي غدا حيوية وطاقة غريبة في الكلام، جعلت الناسَ مبهورينَ به. وراح الصحابة يخرجون من بيوتهم وصدفاتهم، ويمضون إلى البرية مثل سيل يتدفق على أولئك العصاة، حتى حصروهم وأوقفوهم ثم ردوهم على أعقابهم!
نهضَ من على الكرسي شاعراً بهولِ التعبِ دفعة واحدة، وقال:
ـــ هيا يا مروان امض للنوم، أنت تعبٌ أيضاً!
ـــ لا يا أمير المؤمنين سوف أظلّ بضعَ لحظاتٍ هنا.. لدي عمل لم أنجزْهُ..
ـــ أي عملٍ في هذا الليل؟
ـــ شيءٌ من الصدقات لا بدّ أن نوزعها على محتاجين..
ـــ بارك الله فيك!
حدقَ مروان في الكهل الذي يمشي ببطءٍ وتعبٍ بنظرةٍ غريبة: سوف يجثمُ الآن على كرسيهِ الفارغِ! لن يدعَ أولئك المارقين يزيلون حكمَ بني أمية، لن يجعلَ هؤلاء المغمورين يتحكمون في الأمصار!
(هذا رجلٌ ضعيفٌ واجه الجماعة الحاقدة بلطفٍ وحب! كأن كرسيَّ العرش صدرُ أمٍّ رؤوم! سوف أريك يا عثمان كيف يكون الحكم!).
راح يكتبُ على الجلد، وتخيّل الجنودَ الذين سوف يكمنون للعصاة ويأخذونهم على حينِ غرةٍ، وأبوابَ بيوتِهم وهي تُنتزع!
أنهى الكتابة ثم وضعَ ختمَ الخليفة تحت السطور المرتعشةِ بالغضبِ، ثم صاحَ على خادمه:
ـــ خذ هذه الرسالة وامض إلى مصر لا تلوي على شيء!
ونهضَ وراح يفكر لحظة ثم جلس، ومضى يكتب:
ـــ وهذه رسالة لمعاوية ليبعثَ قوة.. من يدري بما يحدث؟

يكادون يغفون، انطفأت النيرانُ والحكاياتُ والأشعار، وعيناهُ جمرٌ، وسيذهب إلى مصر لينامَ طويلاً..
كان محمدٌ بقربه، ويشعر بقلقهِ ويرى تقلبَهُ، يقولُ له:
ـــ ما بك يا عبدالله، أرى أنك غير سعيد بهذه النتائج التي تحققت؟
جاء صوتهُ وهو يرنو للتلال السوداء:
ـــ يا أخي أنا فرحٌ لك!
جماعة قريش.. يا إلهي كيف يعينون بعضهم بعضاً وهم بين خنادق متقابلة!
ـــ لا تبدو الفرحة شاملة!
ـــ ماذا تريدني أن أفعل؟ أزغردُ لهذه النتيجة البائسة!؟
ـــ ألا بد لك من أن تزيح ذلك الكهل؟
ـــ نعم، لا بد من ذلك، لأن المشكلات سوف تتكرر ونعود ثانية وثالثة إلى المدينة!
المتلحفون نزعوا الألحفة، الراقدون نهضوا واقتربوا، والحيرة غير المنقشعة طارت فوق الرؤوس ثانية:
ـــ إنكم يا أسرة قريش تديرونها بعضكم بين بعض، ماذا نقدر أن نفعل نحن بينكم!
جاءتْ آهاتٌ وموافقاتٌ مغمغمة من بين الأجساد، وفجأة صرخَ تهامة:
ـــ أنصتوا قليلاً..!
ـــ ماذا بك؟ ماذا حدث؟
ـــ إنني أرهف السمع لصهيل فرس وسنابكها تضربُ الأرضَ بقوة!
ـــ من سوف ينطلقُ الآن في منتصفِ الليل!
ـــ انظروا هناك.. ثمة فارس منطلقٌ ويبدو كشبحٍ مخيفٍ!
ـــ لقد اختفى!
ـــ ليس رجلاً هو خيال!
ـــ بل إننا نسمع بوضوحٍ الآن حتى ضربات الفرس!
ـــ لنمضِ وراءَهُ ونعرفَ من يكون!
ـــ أهو رجلٌ منا مندسٌّ؟!
ـــ هيا نجري قبل أن يضيع بين التلال والدروب!
وجلس عبدالله ومحمد بقلقٍ بالغ.
ـــ أتشعرُ بما أشعرُ به يا محمد؟
ـــ أحدسُ بما يمكن أن تقول!
ـــ سيكونُ شيئاً رهيباً وتكون كلماتي كلمات رسول!
ـــ لا توغلْ في الوهم كثيراً!
ـــ بل أنا تنتابني مثل هذه الرؤى..

كان الصخبُ والصهيلُ وصرخاتُ الفرسان، وومضُ النجومِ المتسارع المبهر، والصحراءُ التي استيقظت فجأة على الحلم، والنور، والحقيقة التي ستنكشفُ وتظهر طيبة الكهل الخادعة، والسكاكينُ المخبأة وراءَ العرش، وجاء الفرسانُ ممسكين رجلاً:

ـــ من هو؟

ـــ إنه خادم عثمان ومعه رسالة!

اصطخبَ الجمع، لم يعد ثمة أحد به ذرة نوم أو غفو أو رجاء، وكانت السطورُ مخيفة، والختمُ واضحٌ جلي!

الفصل الحادي عشر

ها هي عاصمة قريش تُفتحُ للمغمورين في الأرض، فحانَ زمانُ ذلِّها! هذه التي أذلت صنعاءَ واليمامة آن لها أن تخضعَ لبني تراب!
الكبارُ والتجارُ والمحاربون القادة كلهم مرميون تحت سيلكَ البدوي!
العامة المفزوعة التي ودعت الجند المصريين بالنظر البعيد ها هي تراهم مندفعين بين سككها ومتاجرها وبيوتها العامرة، فتخشى على خزائنها، وتلوذُ بالهربِ وتقفلُ أبوابَها!
لكن هذا الجحفلَ من الجندِ المصريين والعراقيين مضطربٌ، مندفعٌ، لا يعرفُ ماذا يفعل:
ـــ لقد غدرَ الخليفة بنا فلا بد لنا من تقويمهِ بحدّ السيف!
ـــ اصمتوا يا أهل المدينة وعودوا لأعمالكم!
ـــ أنتم أفزعتم الصغارَ والكبارَ!
ـــ خسئتم تغزون مدينة الرسول!
ـــ بل نضعُ حدّاً لظلم..
الجحفلُ لا يعرفُ ماذا يريد، وتجلسُ مع الأشتر ومحمد وغيرهما من القادة فلا تجد صدى عميقاً لنفسك، يقول الأشتر غاضباً:
ـــ أنتم راسلتم العراقيين ووجهتم الجموع كلها نحو المدينة وأنتم لا تدرون بشيء!
يرد محمد:
ـــ وقعت بأيدينا رسالة مختومة من عثمان إلى والي مصر.. يأمر فيها بجلدنا وحبسنا.. فغدرَ بالتفاوض وبما تم التوصل إليه!
ـــ عثمان لا يمكن أن يقوم بذلك، فيكم من تنطوي نفسه على خسة وتطلع رخيص ويلقي برغباته هذه على الكبار!
احتدّ هو:
ـــ أي كلامٍ هذا.. نحن لدينا خسة؟! أين كلامك الذي كان في مصر؟
ـــ تراسلون العراقيين وتدعونهم للمجيء.. كأنه غزو!
جاثمون في ساحةٍ واسعة، بعضُ العسكر أقام خياماً. بيوتُ المدينة ودكاكينها مغلقة في وجوههم، النظراتُ والكلماتُ كلها صفعاتٌ، أين الاحتضان من الناس لهم؟ أين الأكلُ الشهي والنساءُ المعجبات؟!
الأشتر يواصل نشره لعظامهم:
ـــ نحن منبوذون هنا، وألسنة الصحابة أقوى من أسلحتنا.. أسرعتم وورطتمونا في هذا السيل العسكري الهائج، وذهبتم لعلي والزبير وطلحة تعرضون عليهم الخلافة وكأنكم أهل الحل والعقد الكبار وردّوكم بغضب!
ـــ بعد أن رأينا غدرَهُ لا بد من خلعهِ!
ـــ لكنه جالس في كرسيه العالي لا يأبه بهذه السفاسف!
ينهض عبدالله منزعجاً. هذا العجوز غير المسلح، المحبّ للأكلِ والنساء، يغدو أقوى منه؟! أين ذهبَ نورهُ وكلماتهُ المشعات القادمات من علٍ؟ وهو يتهرب من علي بن أبي طالب، يخشى أن

يقابله بوجهه، يتوارى عنه..
يتوجه إلى تهامة وجماعته. هنا رائحة أخرى غير رائحة القرشيين المعطرة، هنا البوادي البعيدة وشعاب الجبال، هنا الرعاة الذين تجرحت أيديهم بصخور السيول، وناموا قرب الماعز والذئاب.
يسأله تهامة:
ـــ هل سننامُ طويلاً يا عبدالله؟
ـــ ما رأيك أنت؟
ـــ نهجم على هذا العجوز ونريحُ الناسَ منه!
ـــ وكيف وأمامك حصون من الكلام والقادة؟
ـــ ليس ثمة معه عسكر ومع ذلك استطاع أن يحصرنا في هذه الساحة؟
ـــ لا بد أن نذهبَ للصلاةِ في المسجد فنكونُ معهم وشيئاً فشيئاً نزحزحهُ ونمنعهُ من الصلاة والخروج..

٢

يمشي عثمان ببطءٍ وهدوءٍ نحو المسجد. يتطلعُ في الوجوهِ فيجدها نفسها، إلا من شخصياتٍ بانت ثيابها الرثة ووجوهها المغبرة وغمغمتها حتى في هذا المكان. من أية قرى بعيدةٍ وزرائبَ قدمَ هؤلاء التعساء؟ أية عواصف رملٍ اجتازوها وفيافي قطعوها وجمل قصيرة مبتورة حفظوها؟ يتطلعون فيه بحقدٍ وكأنهُ سرقَ مراعيهم أو خطفَ أولادهم، يثرثرون وهو يخطب، يغمغمون وهو يعظ، ثم يرفعون أصواتهم المنكرة:

ـــ أيها الشيخ العجوز العاصي لا نريدك أن تخطب!

ـــ اذهبْ إلى دارك ونمْ طويلاً هناك!

ـــ قومْ نفسك أولاً قبل أن تعظ الآخرين!

حدقَ فيهم جمهورُ المصلين وصرخ البعضُ بهم:

ـــ ألا تكفّون عن الخليفة؟

ـــ اخرجوا من المسجد إذا كنتم تتحدثون!

ـــ أية سلاطة لسان هذه؟!

لكنه لم يزل واقفاً، مهدئاً الجمعَ الغضب، منطلقاً في عالم لم يره هؤلاء:

ـــ في هجرتنا للحبشة، ثلة صغيرة وسفينة مترجرجة في اليمّ المتدافع، نقول سنهلك قبل أن نصلَ إلى الأرض، فقدنا أكثر أكلنا، تركنا متاجرنا وراءنا بائرة، لم نفكرْ بتنميةِ الفضة، وزيادة جبال النقود، أهلنا يرفعون علينا السياط، نمضي في الليل البهيم، ونسمعُ الموجَ الهادر، لكن نصل بحمد الله إلى البشر، إلى هدوءِ الأرض ونعمة الزاد، وبين اللغات الغريبة كنا نقرأ، بين الشظف والغربة نمدّ الحبالَ لمنازلنا وأهلنا، زوجاتنا يمرضن ويتحولن إلى أعوادٍ يابسة، وتطاردنا ذئابُ قريش إلى ذلك الوكر الآمن، تتطلعُ إلى جلودنا وقلوبنا.. سنواتٌ طويلة مريرة ثم يأتي بعضُ أهلِ الغبراء ليفتشوا في أرواحنا عن إيمان، وليمزقوا عظامَنا حتى يعثروا على ذرةٍ شك وشبهة ما..

كانوا يحدقون فيه، وراح ذلك الكهل بكلماتهِ الهادئةِ الواثقة يحركُ الكتلة المغمغمة، فراحت تتطلع فيه وتشعر بأسى:

ـــ أية جبال كانت لدي من ذهب.. كنتُ أكسرها وأوزعها على أي محتاج كان يلجأ إليّ، الجيشُ الذي لم يمتلكْ سلاحاً وخيولاً يمرّ بي فيغدو جاهزاً، أبنية تنمو من أصابعي، آبارٌ تتفجر من حبي، لا أقول ذلك مباهاة لكن أقوله لأناسٍ لا يعرفون من أنا! ولو كانوا يريدون عمري الفاني أعطيتهم إياه.. لكنه قليل لم يبق فيه شيء!

صمتٌ فظيع، انكفأت جماعة الثرثرة لكن تهامة احتدّ غيظاً:

ـــ كنتَ أول من استنّ التهجير للمسلمين!

تطلع فيه عثمان بتوتر:

ـــ لم أكن أريد أن يُنكل بهم يا هذا.. لكن الوالي لم يفهم أمري.. وكان لا بد من تأديبهم!

اندفعتْ بعضُ الحصى نحوه وراح يتقيها فتصيبه.

نهض أحد المصلين وأمسكَ بعثمان وسحبه بقوةٍ من المنبر!

٣

كان يتقدم إليه شخصٌ مألوفٌ غريبٌ، في هذا الليل البهيم، والنوافذ مغلقة، والرمالُ تنتشر في الأجواء، كان من الصعب أن يعرفَ عثمانُ عمّهُ. ودهش أنه لا يزال حياً، وفوجئ بأنه هو رئيس العصابة التي تريدُ أن تقتحم بيته. وصاح:

ـــ ألم يكفك ما فعلته بي؟!

وعجب أن سحنة الرجل تبدلتْ وظهر بوجهِ الرجل الذي أنزله من المنبر، وجلسَ قربه وقال:

ـــ الم أقل لك إنك لا تصلح لشيء ثم تقفز للخلافة! هيا قمْ عن هذا الكرسي..

راح يتصارعُ معه على لوحٍ متقلقلٍ في الفضاء الواسع، خنقهُ بيدين قويتين، لكنه كان يتكلم:

ـــ عمي أرجوك لن تستطيعَ أن تثنيني عن إيماني!

ـــ أنت من علية القوم فتتبعُ هؤلاء الفقراء..!

كانت الريحُ الغبارية تملأ البيتَ، يسدّ الثغر فتتسللُ من تحت عتبةِ الباب، تملأ أواني الماء وتجعلُ وجهَهُ متشظياً، وراح يصيحُ على زوجتهِ لكن لم يكن ثمة أحد.

قال له الرجلُ الغريبُ:

ـــ نحن نعيش في خيامٍ ممزقةٍ في البادية وأنت تتزوجُ هذه الصبية؟

تحدث عمّهُ بصوتٍ جهوري:

ـــ دع الأموالَ كلها ثم هاجر وسنطاردكم حتى في الحبشة!

فتح عثمان الخزائن وقال:

ـــ تعالوا أيها الفقراء والمعوزون خذوا..

جاء معاوية وقال:

ـــ جيشي رهن إشارتك، مرني وأنا أقتل عمك!

ـــ لا! هو رجلٌ موتورٌ لكنه طيب!

ـــ بعد أن عذبك كل هذا العذاب!

ـــ كيف التجارة الآن بالشام؟

ـــ كلها في يدي.

ـــ ولهذا أنا لا أحبك..

أخذ عمهُ يتحولُ في ضوءِ المرايا فتداخلَ مع معاوية، وصارَ يجلدُهُ. أخذهُ معاوية إلى جناحٍ في القصر يطلّ على مقبرةٍ واسعةٍ، ورأى حشداً من الناس كلهم يحملون أكفانَهم، وراحَ شخصٌ نحيفٌ يتقدمُ نحوه وهو مثل الآخرين يحملُ كفنَهُ، واتضح له فإذا هو أبو ذر الغفاري، سلمَ عليه بترحيبٍ شديدٍ، قال:

ـــ سيدي كيف أنت وكيف أحوالك، منذ زمنٍ لم نجتمع ولم أسمعك خطبي!

ـــ أنا بخير، لكن كيف أخبروني أنك متَ؟!

ـــ أنا مُتّ، ولكن لم أستطع أن أدفن، عمك اشترى المقبرة منك بسعر التراب، ولم يعدْ أحدٌ قادراً أن يدفنَ نفسَهُ دون أن يدفعَ ثمناً باهظاً..

ـــ سوف أصدرُ قراراً بإعفاءِ الموتى من الرسوم..

ـــ لن ينجحَ ذلك!
ـــ أنت دائماً تعارضني حتى في الموت؟
ـــ لأن الطلب على القبور متزايد بكثرةٍ شديدةٍ هذه الأيام..
ـــ إلى هذه الدرجة أصبحت الدنيا مكروهة؟
ـــ حتى أنت لن تستطيع أن تحصل على مكانٍ فيها..
ـــ من تقصد الدنيا أم المقبرة؟!
ـــ كلتيهما!
نهضَ مفزوعاً وهو يتحسّسُ الأصابعَ التي كانت تضغطُ على رقبته. تلفتَ فلم يجدْ أحداً، لكن كان الظلامُ قد خف، وبدا أن الفجر وشيك.
جاءته ذكرى أبي ذر مريرة، فراح يحضنُ شبحَهُ في روحهِ وصاح:
ـــ لم عذبت نفسك يا أخي؟!
ـــ منذ أن سقط خاتم النبي في البئر وعرشكَ يهتزّ!
ـــ هذا حديثُ خرافةٍ!
ـــ أنت مضيتَ في سكة صعبة.
ـــ وأنت مضيتَ في سكة صعبة..
ـــ لماذا لم نتفق؟!
ـــ نعم، لماذا لم نتفق؟!
حدقَ في الفراغ متألماً:
ـــ لقد أحببتُ هذا الرجلَ لكني لم أستطع أن أفهمه..
وتوجه إلى الباب، يتعكزُ على الجدار، وفتحَ وغمرَهُ بردٌ وظلامٌ، وإذا رجلٌ يقفُ بالبابِ وخلفهُ حشدٌ مسلحٌ.
قال الرجلُ:
ـــ لن تخرجَ إلى الصلاة يا عثمان!

عانق علياً بن أبي طالب وهو يقول:
ـــ أيرضيك هذا يا أبا الحسن، أمنعُ من التوجه للمسجد؟!
ـــ لا والله!
ـــ فليبتعدْ هؤلاء عن بيتي!
ـــ ماذا حدث؟ لقد أرضيناهم ومضوا في طريقهم إلى مصر ثم عادوا بغتة واحدة وكأنهم على اتفاق!
ـــ يقولون إنني كتبتُ خطاباً إلى عبدالله بن أبي السرح لكي يعذبهم ويقتلهم!
ـــ وهل كتبتَ ذلك؟!
ـــ لا والله، كيف أكتب وأنا اتفقت معك على كل شيء؟!
ـــ إذن من كتبه؟
ـــ لا أعرف!
ـــ لكن خادمك هو الذي كان يحمل الرسالة؟
ـــ والخادم لم يقرّ بشيءٍ وضربوه حتى هلك!
مضى علي وهو يصيح:
ـــ أحضروا الخطاب منهم!
توترٌ شديد، الخليفة العجوز التعب جلس على المقعد، أبناء علي قربه، دبتْ حركةٌ في الخارج، تعالت الأصواتُ:
ـــ لن نعطيه لأحد!
ـــ علي يطلبه!
ـــ سيحملهُ أحدٌ منا!
رجلٌ بدوي متجهم يدخلُ وفي يدهِ قطعة جلد. يأخذها عليّ ويحدقُ فيها مبهوراً ويصيحُ:
ـــ هذا ختمكَ يا أميرَ المؤمنين..!
ينتزعهُ ويتطلعُ فيهِ برعب:
ـــ من فعلَ ذلك؟ من يجرؤ..؟!
الجميعُ يحدقُ فيه، وينظرون إليه كمتهمٍ، وربما ككاذبٍ، وهو يتحدى تلك النظرات الغريبة:
ـــ لا والله لم أفعل ولم أكتب!
ـــ مَن يصل إذن إلى ختمك ويدعو لزهق أرواح؟!
ـــ لا أعرف!
ـــ كيف لا تعرف؟
ـــ ....
ـــ ربما واحدٌ من أهل بيتك؟!!
ـــ لا أعرف!
ـــ حتى الآن تدافعُ عنه!

ـــ من تقصد؟
ـــ هل هناك غيره.. مروان!
حدثَ صمتٌ رهيب، الكلماتُ غصتْ في حلقه، ريقهُ نشف والتهب: أيورطه مروان هكذا؟ ينتزعُ الخلافة منه! يكتبُ لحبس أناس وتعذيبهم؟ لكنه فعل ذلك لحمايتي.. لحبهِ لي! فأحدثَ موجة من الحقد والكراهية حطت فوقي، وهل كان هؤلاء يريدون إلا العذر! ولو لم يحصلوا على الرسالة لابتكروا شيئاً آخر، وربما هم الذين كتبوها وزوروا الختم! حقدهم عليّ متواتر.. هؤلاء الأجلاف يحقدون على أهل الخير..
رفع رأسَهُ فلم يجدْ أحداً سواه، انسحبوا بهدوء، تركوه بين شقي الرحى، حجارة كبرى هنا تنزلق على صدره، ورؤوس خناجر هناك تلهبُ ظهره، وكرسي السلطان المشتعل يطفو فوق الماء، وأيد مقطوعة تمسكُ بمساميرهِ، وهو فوقه، يحاولُ إطفاء النار، وألسنتها تمسكُ بثوبهِ، وتأكلُ شعرَ رأسهِ، بابُ الخليفة مغلقٌ، وحراسٌ من الدهماء منتشرون الآن على جراحهِ ومسامهِ.

٥

في الظلماءِ، في صمتِ المدينةِ الرهيب، في لمعةِ الخناجر وتكدسِ الأجسام في الغرف الضيقة، وغمغمة الألفاظ في الأشداق الضخمة الصلدة، يقولُ تهامة:

ـــ بماذا تسبقنا قريش، والله سوف نذلّها كما ذلتنا!

يهزّون رؤوسهم، وعبدالله يحدقُ فيهم؛ لو أن كلماتهِ تنحفرُ في صدورهم، لكن هنا لا عقول، ماعزٌ بشري يتحركُ نحو العشبِ والذهب، انظرْ ماذا يفعلون بالعصيدة والخبز..! التهامٌ فظيع، والبقايا تتساقط على لحاهم، وعندما يتكدسون على الصلاة، لا اغتسالَ وروائح فظيعة تنبعثُ من الثياب والنعال!

أي غزو إلى رؤوس المعالي هذا؟ لكنه يبتسمُ لتهامة ويقول:

ـــ لماذا نجعل هذا العجوز يتلاعبُ بنا؟ أرجُلٌ خرفٌ خرقٌ يقودُ بلداناً لا أحدَ يعرفُ أين تبدأ وأين تنتهي!

يصيحُ به بدوي قزمٌ ذو وجه عظمي:

ـــ هو أو غيره.. لا نريدُ هؤلاء، ألم يذلّوكم أنتم أهل اليمن؟ ونحن أهل نجد فرضوا علينا المكوس وزعموا أنها الزكاة! ذهبَ نصفُ قبيلتي في تلك الحرب الضروس!

أحسّ عبدالله بضربةٍ في كبدهِ من أصابع البدوي التي تتحركُ في كلِّ اتجاهٍ، وراحَ يمضغُ بقايا الخبز اليابس، ويتطلعُ فيهِ وكأنهُ حشرة فاشتعلَ غضبه.

ـــ كيف تقول ذلك.. هناك شمس مضيئة في قريش..

ـــ لا شمس ولا نجوم.. السيفُ وحدهُ هو الشمس وكلنا صرنا مسلمين.. وما يقطع رأسك إلا الذي خلقه!

تطلع فيه تهامة مبتسماً ساخراً:

ـــ هؤلاء هم السيل العرم.. إذا أردتَ أن تكون معنا فلا تقل لنا قريش.. تأتينا النجداتُ والحشودُ من كلّ مكانٍ، وحتى لو جاءَ معاوية بجيشٍ عرمٍ سوف نتغلبُ عليه.. لكنهُ يراوغ.. خائفٌ ربما.. أو ينتظر الفرصة.. حانت ساعة نهاية قريش!

اصطخبوا ورفع بعضهم مصاحف، وحين هدأت الضجة قال عبدالله:

ـــ ليس ثمة أفضل من علي بن أبي طالب..

تصايحوا في وجهه:

ـــ سوف نرى هل يعيطنا ما نريد!

ـــ دعونا أولاً نحل مشكلتنا مع هذا العجوز..

ـــ هل نحن قادرون على فعلِ شيءٍ أم ترانا نثرثرُ وقد مضت أسابيع ونحن نمنعهُ من الخروج دون أن يتحقق شيءٌ!

ـــ أعجبُ من هذا الرجلِ الضعيف الوحيد الشيخ ومن صلابته!

ـــ ليست صلابة يا أحمق لكنه العجز عن التصرف!

ـــ بل قلْ إن الرجلَ ينتظرُ نجدةً والسماء بنفسها تخلتْ عنه!

ـــ لكنكم لا تفعلون شيئاً غير الأكل والكلام والنوم!

ـــ وتشاجرتم مع الباعة وسرقتم بضائعَ من المخازن!
ـــ لسنا نحن بل اللصوص ونحن جادون في البحث عنهم والقبض عليهم!
ـــ لحسن حظهم أننا لم نعلن الحرب عليهم ونغزهم!
ـــ أين أنت ذاهب يا عبدالله؟
ـــ لم يعجبهُ كلامنا، يريدُ أهلَ قريش!
قام شاعراً بأن الهواء هربَ من جسمه، والحشدُ الذي ظنه أصدقاء تابعين ظهر أنه سرب من الجمال التائهة في المدينة، أين راحت كلمات الضوء النازلة من النجوم؟ ما هذه الروائح العطنة، كيف السبيل إلى التوحيد بين النور والتراب؟!

الفصل الثاني عشر

يتراءى للأشتر جسمه وهو ينطلقُ في بريةٍ مفتوحةٍ على لهب، ويسمعُ أصواتاً تثقب أذنيه، فيقفُ في تلك الصحراء المخيفة محدقاً في شيءٍ يتحركُ مثل السحابة الهائلة، ذات ألوان ورعد وقصف. كان الصوتُ يقول (إلى أين أنت ذاهب يا رجل؟). وحين اقترب من شواطئ العاصفة شاهد جسمَهُ يحترق!

كانت ظهيرةٌ حاميةٌ، وهو في الخيمة، ونهضَ والعرقُ يملأه.

فوجئ بابن سبأ جاثماً هو الآخر في الخيمة، ودهشَ لأنهُ تركَ كلّ ذلك الغليان عند بيت الخليفة.

مضت أيامٌ كثيرة رائعة بينهما وأيام عديدة لم يرَهُ فيها وكرهَ فيها رؤيتَهُ، وازدادت شكوكهُ في كلماتِ صاحبه عبدالله، فهو يحيط نفسه بهالةٍ من الغموضِ ولا يبوحُ بأسرارهِ، وماذا يريد، ويدفعهم بقوةٍ وهو يجثمُ وراء ستائر معتمة، والآن جاءت حشودٌ من الأعراب وهي تفرض سطوتها وشغبها، وهرب الناسُ من الشوارع ولاذوا ببيوتِهم ولا أحد يفتح!

لأول مرة يراهُ متخشباً حزيناً:

ـــ ماذا بك، لماذا أنت هنا؟ ينبغي أن تكون مع جماعتك!

لكنه استمر في وجومه.

ـــ الآن هذا هو وقتك.. نزل النورُ عليك لكنه تجلى في هؤلاء الأعراب المتدفقين نحو اللحم والشحم والنقود! اذهبْ من هنا، امضِ إلى بركةِ الضياء!

ـــ لم يعودوا يأبهون بنا! أية كلمات نقولها يمضغونها كأنها قطعٌ من العظم، هؤلاء الذين ظننتُ أنهم سذجٌ اتضح لي أنهم أكثر دهاءً مني ومنك يا أشتر!

لأول مرة يتكلمُ بحرقة، من جوفٍ مكسور، من روحٍ مضطربة ملتاعة. يجلس قربه:

ـــ ماذا بك حقاً!؟ هل أنت حزين لأن أحداً لا يأبهُ لك! لأن الدابة المتوحشة أفلتت من حبلك ومضت تنطحُ وتأكلُ بشراهة؟!

يرفعُ رأسَهُ بغضبٍ كأن الكلامَ أحرقه:

ـــ أهذا ما تظنهُ بنفسك السوداء!

لأول مرةٍ تنفرجُ شفتا الأشتر اليابستان عن ابتسامة!

ـــ يا لخجلي منك يا أشتر، تجثمُ في خيمٍ بعيدة، وتتوسدُ سيفَك وتحلم!

ـــ ماذا تريدني أن أفعلَ وقد غلبنا سيلك العرم المتدفق من سدٍّ منخور بألفِ فأر ولص! كيف لي أن أشكمَ كلَّ هؤلاء العوام الأغلاظ الذين غذيتهم بالغرور!

ـــ مرةً أخرى أسمع ذلك.. ظننتُ أنهم طوع يدي!

ـــ وبعد.. ماذا سنفعلُ؟ هل نترك هذه السفينة تتنازعُها الأمواجُ وكنا نمسكُ بدفتها؟!

نهضَ عبدالله، اقتربَ من فوهةِ الخيمة المطلة على الخلاء، كان الوهجُ حاداً.

قال:

ـــ دعهم يكملون مهمتهم..

ـــ ماذا تقصد؟!

ـــ لينته هذا الرجل العجوز ونرى!

ـــ آه.. يا لك من إنسان فظيع متوحش!
ـــ السياسة رهيبة لا تقبل بأشعار الحب!

٢

يصغي عثمان لأصواتِ سجانيهِ التي تأتي من وراء الباب والجدران. كلماتهم غريبة وأصواتهم نشاز. لكن ثمة صوتٌ يعرفهُ، ذو أثر حسن في قلبهِ، البابُ يفتحُ له، يقتربُ الجسدُ المهيبُ، نورٌ خافتٌ يتسلط على أجزاء من وجههِ، فإذا هو الأشتر!

صار هذا الرجلُ سجانه؟!

يكادُ يمسكهُ من رقبتهِ:

ـــ أتفعلون ذلك بي يا أشتر؟

جاءهُ صوتُ الرجلِ خافتاً ضعيفاً:

ـــ بل الآن.. أنت الذي تفعل بنا!

ـــ أنا المحبوسُ بفعلِ هذه الغوغاء التي أثرتموها؟

ـــ لا تثرهم عليك يا أمير المؤمنين!

ـــ أكملْ ماذا تريد أن تقول؟

ـــ أنت تستطيعُ أن تجلي هذه السحابة من الغبار.. تبعدُ هؤلاء المستشارين وتجعلُ بيتَ المال للمسلمين ولا تقترب منه أنت!

ـــ وماذا سيبقى لي من حكم؟ أغدو دمية في أيدي هؤلاء أو هؤلاء؟!

ـــ بل ستحكم.. لكن قرّب العادلين من الصحابة. اضربْ بقوة على من يجعل مال الناس له!

ـــ كل ما فعلته لا يبقى له أثر في عيونكم!

ـــ إذن اعتزلْ هذا الحكم وأرح نفسك!

ـــ يغدو كل ما فعلتهُ باطلاً ويضيعُ جهادي!

ـــ هذا آخر ما لدي، والله إني لا أريدُ بك سوءاً!

ومضى ببطءٍ شديد حتى ظن انه لا يريد أن يخرج.

العتمة تزداد، ثمة صراخ رهيب يأتي من جهتين، حشدان يتجسمان في النورِ والظلام، تظهرُ وجوهٌ مضطربة، مفتتة، وأجسادٌ موزعة، جمعان كبيران متضادان، تلمع أيديهم بالأنصال، يقولُ فريق:

ـــ اتركهم، لا تعطهم شيئاً، هذه الغبراء سوف تأكلك!

آخرون يمشون على أعصابه:

ـــ بل أهلكَ سببُ المصائب، أبعدْهم!

ـــ جمّرهم، أنقصْ عطاءهم، اضربهم!

ـــ أبعدهم عن الفيء، اعزلهم من الأمصار، اطردهم، اسجنهم!

ـــ معاوية، مروان، ابن عامر.. ابن خالك، ابن عمك.. مصائب.. مال الناس.. حريق.. جهنم..

ـــ أهلك عزوتك، سندك، إذا عصاك الناس فستجدهم قربك..

ـــ بل أشرارٌ، يتركونك في وقت شدتك، طماعون..

رأسهُ يتحركُ الآن بصعوبةٍ، عيناه زائغتان، أنفاسهُ تتلاحقُ وتتسارع، ويمشي ببطءٍ نحو بقعةٍ كأنها ضباب أو ماء متبخر، وتتحرك الأيدي من الجهة الأخرى وتتغلغلُ في ثيابه، يعودُ للوراء

متثاقلاً، ويرى أصحابَهُ يفتحون أحضانَهم له، تشدهُ أيدٍ أخرى.. تتباطأ خطواتُهُ أكثر، يتعب بقوة، يسقطُ تعباً..

٣

يحيطُ علية القومِ بمعاوية في مجلسهِ الواسع، وثمة رجلٌ يتكلم:
ـــ يا أمير لا يجوز لنا أن ندعَ الدهماءَ تتحكمُ في المدينة وتحاصر الخليفة، إلى متى نجثمُ هنا؟
يقول معاوية بحماسة:
ـــ لن نقف مكتوفي الأيدي إلى الأبد!
ـــ لكننا شبه مكتفين هنا، نتطلعُ إليهم ونتفرج وهم يطبقون الخناقَ على الخليفة في كل يوم؟!
الناس تتطلعُ إلى وجوهِ بعضِها. ثمة حيرة وقلقٌ وخوف.
قال معاوية:
ـــ لقد قلتُ للخليفة إن وضعَهُ في المدينةِ صعبٌ وإن عليه الانتقال لدمشق، أو أن أضع عنده فرقة من جيشي على أن يدفع لها من بيت المال، أو أن يقطع رؤوس الفتنة في المدينة، لكنه رفض كل هذه الحلول..!
ـــ لكنه هكذا أوقع نفسه في مشكلة فلا هو لديه حرس ولا هو يقبل أن يدافعَ عنه أحدٌ!
الرجل الذي بدأ الكلام قال ثانية:
ـــ لم تجبني يا أمير بعد عن السؤال. الآن هذا هو وقتنا لنندفع بجيش نحو المدينة ونفكَّ الحصارَ عن الخليفة!
حدث صمتٌ وتوتر، لكن معاوية أجابَ بهدوء:
ـــ جيشنا أغلبه في الثغور والحدود، ونحن نتوقع أن يستغلَ الرومُ الوضعَ المضطرب في المدينة فيغزونا كما أننا لا يمكن أن نمضي إليهم بجيشٍ فيستغلّوا الفرصة لأعمال دامية!
ـــ وهل نتركهُ تحت رحمة سيوفهم؟ وماذا لو قتلوه؟
ـــ أيفعلون ذلك بشيخٍ عجوز؟! أيكونون حينئذٍ مسلمين؟!
حدث ما يشبه الرعب، نهضَ معاوية ونهض المجلس، وكان محتداً وغاضباً، وودع القومَ بودٍّ، ومضى إلى داخل القصر، وراح يفكر والحاجبُ يتبعهُ وسألهُ عن أعداد الجنود، وطلبَ منه زيادة المتطوعين ودعوة أبناء القبائل إلى الانضمام للجيش، ثم راح يسأل عن أية رسائل جديدة تكون قد جاءت من المدينة، وأجابه بالنفي، ثم قال:
ـــ هل تأذن لي يا أمير بالكلام؟
ـــ ما بك يا عمير؟
ـــ يا سيدي نحن لدينا الكثير من الجند هنا، ونستطيع أن نهجم عليهم هناك... وقد يدركنا الوقت!
ـــ نجهز الجند وننتظر.. دخول جيشنا إلى الجزيرة فيه أخطار جسيمة عليه.. لا بد من الصبر والانتظار في هذه اللحظات المخيفة والخطيرة من التاريخ.. ركزْ أنت على معرفة التطورات في المدينة أولاً بأول، أريد أن أسمع حتى النأمة هناك!
دخلَ جناحَهُ وحيداً. نزعَ سحنة الهدوء وقناعَ الصرامة وانهار على السرير مذهولاً (أي مصير سيكون لنا؟ ها هو سيلُ التاريخ يتدفقُ فهل سيعدّنا شيئاً من الأوشاب أم صخرة صلدة لا يجرفها التيار؟).

ابنه يزيد يأتي من الصيد وحوله أصدقاؤه الفتيان وليس ثمة همٌّ يشغل عقله! ثم في الليل سوف ينعزلون عن العالم كله.
(أين تمضي العاصفة بالخليفة؟ ماذا سيحدث؟ تلك معضلات سوف يحلّها الزمن نفسه، لكني أعددت للزمن عدة سوف تهشم عظامه!).

٤

علي بن أبي طالب يمشي في حوش البيت مفكراً: (لماذا تركوا الخليفة عثمان وحيداً؟ لماذا صاروا ينهشونه من كلِّ جهة؟ أخطاؤه كبيرة، وتراجعهُ عن كلامهِ هدمَ كلَّ شيء، لكن لماذا لا يصبرون عليه بضعة أشهر، إنه يحتضر!).
البيت شبه خال، أبناؤه كلهم عند منزل الخليفة يقاومون المحاصرين الأشداء.
طلحة أشد الناس نقداً لعثمان، معاوية صامتٌ في الشمال ولا نأمة تصدر عنه، والرسائل تتدافع نحوه!
حين كان يحاور المحاصرين كان يراهم ككتلةٍ واحدة غريبة يجمعهم كرهٌ غريب، خاصة هذه الوجوه التي تقف عند الباب والجدران، كأنهم فقط يريدون الانتقام، كأن عثمان هو رمز لقريش، ويريدون أن يرتكبوا شيئاً فظيعاً تجاهها. أية سحب سوداء تحركُ مشاعرَهم، كأن ثارات الردة لا تزال تقبع في أرواحهم!
لا بد من فكِ الحصار عن الخليفة الشيخ وليكن ما يكون!
رأى ولده الحسن يدخل حزيناً:
ـــ ماذا جرى؟ هل ثمة شيء خطير؟!
ـــ لا يزال هؤلاء يحاصرون الخليفة، وقد تمكنتُ من الدخول عليه. تصور أن الرجلَ الذي تبرع للمسلمين بشراءِ الآبار لهم من التجار لا يجد ماءً في بيته! والذي وزع قوافلَ الطعام في المجاعات يريدُ أكلاً، حتى لو كان خبزاً يابساً!
ـــ الأمر بهذا الشكل يقودنا لكارثة. حشدٌ من هؤلاء الأعراب الأجلاف يجرنا كلّ لحظةٍ إلى مستنقعٍ عميق، ثمة غليانٌ في نفوسهم أبعد من عثمان.. وجوهٌ كالحة وفقراءٌ معدمون مساكين وثمة حاقدون متوارون وراء سحب الكلمات النظيفة والآيات، يمشون في الظلماتِ على عظام الأبرياء، كيف نعرفهم بدون أن نمشي في هذا المستنقع يا ولدي؟
ـــ أخشى أن ما سيأتي أكثر صعوبة وأكثر تفجراً بالدماء!
ـــ لكن لا بد من الخوضِ في بحارِ الألم، ليس ثمة طريق سوى أن نقولَ ونفعل الخير في مثل هذه اللحظات المدلهمة..
وراح يفكر والحسن يتطلع إليهِ بترقبٍ ملتهبٍ:
ـــ علينا أن نجمع ما يمكن من الصحابة والمقاتلين لكي نطردَ هؤلاء، ونخرجهم من المدينة! هذا هو الطريق، وعليك أن تقنع الخليفة بذلك، وأنا سوف أتوجه للصحابة من أجل ذلك، هيا ليس ثمة وقت!
يمضي للساحات القلقة والرجال المضطربين، يكلم رؤوساً ساخنة، يندفعُ في أزقةٍ ضيقة، يطرقُ بيوتاً والسيلُ يكبر، بعضهم غير متحمسٍ، بعضهم يريدُ العودة للهدوء، ما بال أهل المدينة خيم عليهم الكسل والاسترخاء؟
يتحدثون، يغمغمون:
ـــ هل لا بد لنا من الدفاع عن هذا الكهل الذي أخطأ؟
ـــ لا نستطيع أن نردّ هؤلاء الجنود!

ـــ لم نعد سوى أرباب بيوت وتركنا الحروب!
ـــ أنت أفضل منه فدعه يمضي!
ـــ اسكتْ يا رجل!
تتحول الغمغمة إلى صمت، الغفلة واللامبالاة والكسل تتحولُ إلى صحوة، صرخاتُ حفرِ الخندق ومواجهة الروم ترتعشُ مجدداً وتخرجُ من كهوفِها الباردة، الحشدُ تحولَ إلى سيفٍ قاطعٍ متوجهٍ لبيتِ الخليفة.

٥

(أهذا ما يفعله الغدرُ السياسي؟ أهذا ما تفعله الخسة؟ هل مروان هو الذي قذفني في التنور أم هؤلاء العصاة؟ أم أنا ضحية تاريخ أكبر من النمل البشري المدهوس؟).
حتى الصراصير راحت تهربُ من البيت، والزوجة الجائعة العطشة تتمسك به، والخدم يبحثون عن أي حبة قمح ليطبخوها لهما.
(كيف ظهرت كل هذه القسوة فيهم؟ من أين جاءوا؟ هل هم عرب؟).
يصرخُ بهم:
ـــ ماذا فعلت لكم؟ هل غزوتُ قراكم؟ هل سبيتُ نساءكم؟ ماذا بكم؟ أي حجر صوان تكوّنتم منه؟ من أنت تعال قلْ لي؟ أعربيٌ أنت؟! أمسلمٌ أنت؟!
ـــ تنازل!
ـــ إنهم لا يجيبون سوى بهذه الكلمة. (تنازل) (أأنزعُ قميصاً ألبسني إياه الله والصحابة والمسلمون)! أتركُ هذا المنصبَ لأن ثلة من المغمورين الحاقدين يرون ذلك! ووراءهم حاقدون آخرون كثر، كلهم يطمع في هذا الكرسي.. يا لهُ من كرسي؟ لن أمضي مدموغاً بالضعةِ والدناءة أيها المحاصرون!
أشباحٌ تدخلُ عليه، رجالٌ يتسللون، ثمة ماء، ثمة أكل، المدينة تمدّ أكفَّها، تدخلُ أصابعَها من بين الحجر والسيوف، وهم يطيحون بالمواعين، ويسكبون الحليبَ:
ـــ إنني لا أريد أكلاً لنفسي، لكن لهؤلاء النسوة، ما ذنبهن؟ إذا كنتم تريدون أذيتي فما ذنب هؤلاء الخدم وهؤلاء الحراس؟ لماذا تقتلونهم من الجوع؟
ـــ سوف يعطونك شيئاً منه أيها الكهل!
ـــ إني لم أذق الطعام منذ زمن، وليس لدي شهية عليه! أنا الذي كنتُ أتذوق أشهى اللحم وأطيب الخبز وألذ الفاكهة، لقد سددتم روحي عن الطيبات، منذ عرفت أن ثمة مسلمين بهذه.. الصفات!
ـــ تنازلْ أيها العجوز الخرف ونرحل عن بابك!
الظلامُ الدامسُ حلّ وليس ثمة شمعة أو قنديل وهو يتخبط في الممر. يسمعُ أصواتاً بعيدة، ثمة هياجٌ عنيف.
ـــ كنتُ أتمنى أن يرسلَ معاوية جيشاً لكنني الآن لا أريد. أبطأ أم تلكأ، فذلك لا يهمني. لا أريد أن أضع في سيرتي بقعة دم، لا أريد أن يُقال بأني أرسلت حشداً من الحراب لقتل مسلمين.. ليفعلوا هم ما يريدون، لم يعد جسمي مهماً لي، ها هو مجردُ قطعٍ من الجلدِ على عظم، وأنا الذي كنتُ! أي فرح لكم بهذه الدنيا من بعدي؟ دمي ثمين أيتها الثعالبُ والضباعُ القادمة من كهوفِ الكره. ستسبحون بعدي في بحيراتٍ من الدم دون أن تنشفوا لحظة واحدة. ستبحثون عني لكي أصفحَ عنكم لكن لن تجدوا سوى الأنصال تغوصُ في رقابكم والصرخات تدعوكم لدفن أنفسكم في الرمال!
ورأى أن ثمة بصيصاً من الضوءِ يتراءى قرب الباب، وثمة شبحٌ يدخلُ عليه، لا يتبين وجهَهُ وهو قريبٌ منه، صارت ثمة ظلال على عينيه: أهو معاوية قاد جيشه؟ لا شك أن هذه الضجة

الكبيرة ليست سوى ضجة عسكر. لكن من هذا حقاً؟ إنه الحسن!
ـــ أهلاً يا ولدي..
ـــ يا عماه لقد جهزنا لك قوة قادرة على طردِ هؤلاء من هنا!
ـــ هذا شيء عظيم يفعله أبوك. بودي الآن أن أعانقه، في كلّ مصابٍ عظيم يتجلى معدنُ الإنسان النبيل. أية شكوك كانت لدي؟ أية أوهام فظيعة؟! لكن الآن ها قد حلَّ النورُ الذي يغمرُ عيني، وأرى بوضوحٍ كيف دخلت بيننا الخناجرُ والحيات، الآن أبصرُ الوهادَ التي تعثرتُ فيها، والأشباحَ التي لم أقاتلْها جيداً..
ـــ ماذا قلت الآن يا أمير المؤمنين؟
ـــ بشأن ماذا..؟
ـــ الحصار والقوة التي أعددناها؟
ـــ اتركوهم يفعلون ما يشاءون. لا أريدُ قطرةَ دمٍ واحدة تُراق!

هل هي صرخاتٌ على جبلِ أُحد؟ أهو جيشُ المستكبرين يريد تجاوز الخندق؟
بل عربٌ يريدون تحطيم بابك!
حشدُ الأهل يتجمع، مروان يشهر سيفه، الخدم يتسلحون وهو ينظر بهدوء إلى الباب المتشقق. الضرباتُ تتالى والألواح تقاوم. (هي أكثر حباً لي. الصراخ يحتدم في الخارج وأحبابي في الخارج يقاومون! عشتُ كثيراً، لم أخض حروباً كثيرة، وها هي الشهادة تقتربُ وتختصرُ الأمراضَ والقلق والسهر.).
ـــ تنازلْ أيها المارق عن الحكم!
ـــ اتركْ هذه المهمة التي لوثتها!
ـــ اسكتوا يا جهلة!
ـــ بل أنتم الجهلة المناصرون للظلم!
ـــ الظلم هو ما تفعلونه!
(أي عنف رهيب هذا؟ البابُ المتشقق يظهر الرجال وهم يضعون أيديهم في وجوه بعض. حشدٌ من الرؤوس يشبه غابة من الجن. عيونٌ بها نار. ها هو الباب يتحطم!).
ـــ هيا أمير المؤمنين إلى الداخل!
ـــ كنا نُحاصر من الخارج والآن من الداخل!
ـــ اركضوا.. لكن عثمان يرتقي بصعوبة!
ـــ أغلقوا الأبواب!
ـــ لقد احتجزناهم، لم يعودوا قادرين على الدخول!
حشدُهم يقلقلُ البيتَ الآمن. تمتلئ القاعة بهم. كل هذا الجحفل لرجلٍ واحد؟ والكثيرون لا يعرفهم، هو ذاك محمد بن أبي بكر الذي طالما حملته على صدرك! خالته الحبيبة إلى قلبك تحرضه، من بقي بعد من لم يطلق عليك أسهمه؟
ها هم يقوسون أيضاً بين هذه الجدران، كأنهم يخوضون حرباً مقدسة بين الأطفال والنساء! يا لمأساة القادمين معهم! ها هو أحدهم يطلق والسهم يكاد يخترق رأسك ويتغلغل في الجدار!
خادمك يرد قبل أن توقفه بيدك وسهمه يخترق أحدهم فيتلوى مضرجاً بدمائه على أرض بيتك، تحت الأحجار المسالمة التي كنتَ تغسلها بعرقك. والقتيل يستثير شهوتهم. كأنهم فرحوا بجثته. راحوا يصرخون..
السهامُ مطرٌ حديدي ناري، وسيوف خدمك ومروان تقاتل بضراوة، وبعضهم يأخذك لغرفة داخلية، والصرخاتُ تهز سمعك، إنها أقسى من الحديد والنار، آلامُ النساءِ والأولاد مروعة، لم يكن ثمة بكاء هنا، والآن كل طوبة مرشوشة بالعناء والماء والدماء.
تهدأ الأجواء قليلاً، هل يئس المحاصرون المهاجمون؟ لا!
إن أصواتهم تتصاعد:
ـــ فليسلّم لنا الخادم الذي قتل صديقنا!
ـــ هل ستنسحبون إذا تم تسليمه؟

ـــ سنفكر في الأمر، لكننا نريد القاتل!
يدخل عليك مروان، ثمة جراحٌ متناثرة في جسمه:
(ماذا فعلت بي وبنفسك يا مروان؟ أيستحق الكرسي كل هذا الألم؟ ألا بد أن تجعل للكراسي أسناناً من رماح! لكن تكلمْ الآن، بصوتٍ عالٍ، أنا أرى فمك يتحركُ لكن لا أسمع صوتك! أين يأخذون الصغار؟)..
ـــ هل تسمعني يا أمير المؤمنين؟
ـــ ماذا تقول؟
ـــ هل نسلّم الخادم القاتل لأولئك المجرمين؟
ـــ كيف نسلمه وكان يدافع عنا؟
ـــ إنهم يتدفقون علينا كالسيلِ وانهزم المدافعون!
ـــ اصبروا ورابطوا.. ولا ترفعوا سيفاً إلا دفاعاً عن النفس!
ـــ يا إلهي.. لم أرك بجلال هذا النور من قبل!
كلما وجهوا إلى روحك الحصى عَبرتْ من مسامِ حلمك. كلما أمعنوا في كرهكَ تألقَ حبك. هؤلاء الفتية الذين رضعوا الكراهية شربوا معها الدم. تلوثوا في الظلام والغزو وغدت شراهتهم خطرة ومخيفة.. ها هم يبحثون عن منفذ يتسللون إليك منه!

حركة غريبة وأصواتٌ تتفجر وراء ظهره.
إنهم يقتربون منه!
يدخلُ عليه بضعة أشخاص غير مسلحين. ها هم أخيراً. الليلُ والرمادُ والذئابُ التي كانت تمشي في كوابيسهِ تتراءى الآن ثلة من الرجال. الصرخاتُ الوحشية التي كان يسمعها في الصحراء، والأسرى الذين يأتون، والنيرانُ التي تنشبُ بالخيام، والأموالُ الشحيحة التي تأتي من البريةِ القاحلةِ مغموسة بالعرقِ والترابِ، ها هي تتجسدُ رجالاً من عظام صلدة.
وكانت أموالهُ تذهب للشمال والجنوب تجلبُ لهم القماشَ والأكلَ، والأعمدة التي يرفعون بها الخيام، عيونهم مضطربة، وبينهم محمد بن أبي بكر، مشتت بينهم، نظراتهُ تصفعُ وجهك أحياناً ثم تنتكسُ إلى الأرض..
يقولُ لهم بهدوء وقوة:
ـــ كيف تقتحمون بيتي.. كيف تقومون بكل هذه الأفعال.. المشينة؟!
رؤوسهم منكسة، يرفعونها بخجل، ثم ترمقهُ نظراتٌ سريعة متحدية، ومدعية.
يقول أحدهم:
ـــ لقد تنكبت عن سبيل الشيخين أبي بكر وعمر يا عثمان، وأنت الذي قلت بأنك ستمشي عليه، فقربت أهلك ورفعتهم على رؤوس الناس، فخنت الأمانة!
لم يعرف اسم المتكلم، وغريب أن يعرف الاسم في هذا الاقتحام والتسلط. والأغرب أن يأتي رجلٌ مجهولٌ ليعلمهُ الدين في غرفة نومه. وبدا أن الرجالَ أزاحوا الخجلَ الوامضَ الذي شعروا به بعد أن قفزوا جدارَ بيته وهاجموه.
قال:
ـــ تعهدتُ بذلك وسرت على ذلك السبيل لكن كانت أشياء كثيرة تغيرت، والناس لم يعودوا الناس، صارت لديهم رغبة في سعةِ العيش ففتحتُ لهم السبل، غير أن البعضَ غارَ من البعض الآخر، ولم آخذ من مال الناس إلا بعدما عوّضته بمالي، وربما أخطأت بإعطائي بضعة أفراد واعتذرت عن ذلك وأردتُ إصلاحَ هذا لكنكم لم تمهلونني.. فتنكبتم أنتم طريق الصلاح وسلكتم طريقَ العنفِ والدم!
ـــ أيها العجوز ألا تزال بك بقوة أن تجادلنا ونحن عصبة قوية فوق رأسك!؟
ـــ والله لو جلبتم جيشاً ما اهتزت شعرة من رأسي!
ـــ لماذا جعلت أقاربك حكاماً على الأمصار؟
ـــ استعمل بعضَهم أبوبكر وعمر، وطلب الكوفيون أبا موسى الأشعري فعينته هناك.. وهناك العديد من الولاة ليسوا من أهلي. وأنا لم أستعملْ بعضَ أقربائي إلا لأنني أفهمهم جيداً، وأستطيع أن أردعهم بلطفٍ دون استعمال للقوة فهدأت الولايات..
تصاعدت الضرباتُ على البابِ والنوافذ والجدران، وجاءت صرخاتٌ كثيرة من كلّ مكان، فكأن الدارَ كانت تغلي لحماً وعظماً.
قال آخر وعرف أن اسمه تهامة:

ـــ إذا كنت تزعم أن كل شيء كان هادئاً في حكمك الحائد عن سبيل الحق فما ترى الآن ونحن تسلقنا جدران بيتك والناس ثائرة في كلّ مكان..؟!
هذا وجهٌ صحراوي جامدٌ من هؤلاء الأعراب، في روحهِ غلٌّ عظيمٌ، لكنه لا يعرفه ولم يسئ له في شيء، فلماذا يكرهه؟
ـــ أنا الذي أريدُ أن أعرف لماذا تفعلون ذلك، لماذا تدمرون أنفسكم.. تزيحون أنفسكم من طريق الإسلام؟ أمامكم عمرٌ مديدٌ فلماذا تختصرونهُ هذا الاختصارَ العنيفَ الرهيبَ؟!
بدا أنهم يبتسمون ببلاهةٍ ورعبٍ معاً.
قال آخر كان صامتاً بغطرسة:
ـــ انظروا إلى العجوز يزعمُ أنه هو الذي يهدينا وهو الذي يخافُ علينا بعد أن شبعَ من الدنيا وأسرفَ في الأكلِ والزواج!
كان معاوية الذي حاور بعضهم يقول بأن ليس ثمة عقول لهم. وها هم أمامه لا يتمتعون بذرة من حكمة لكنهم ركبوا بحراً من الناس! لكنه الآن هو وحدهُ معهم وقد فات زمنُ الحوار. تركته المدينة والأمصارُ لمصيرهِ الذي أوكلهُ إلى خالقهِ.
قاومْ إلى آخر لحظة..!
تزدادُ الضرباتُ هلعاً، وتكاد تتشققُ الجدران. أيدٍ رفيقة تكاد تمتدُ لكن الحصى كان قاسياً. الموتُ الذي كان يخافهُ والذي أعطاه الزمانُ فرصاً كثيرة للهروبِ منه ها هو قد جاءَ وليس ثمة قطعة من جلدهِ تنتفض، كأنه ينتظرُ أصدقاءً طالَ انتظاره للحاقِ بهم، ويغدو الموتُ باباً لعناقهم!
قاومْ إلى آخر نفسٍ، تشبثْ بالحياةِ وارفض الموتَ فالعيشُ حلو لكن لا رعب من الزوال!
ـــ يا أبنائي، يا أحبتي اغتسلوا من هذا الدم قبل أن تريقوه على الأرض فستعاف جثثكم حتى النسور!
صرخ تهامة:
ـــ ألست أنت الذي أزهقت أرواحاً؟ ألم تدفعنا لضواري بني أمية يعذبوننا في الصحارى؟
ـــ والله لم أقلْ لهم افعلوا ذلك، قلتُ تأديباً لا تعذيباً، لكنهم حوروا كلماتي!
ـــ ماذا تريد من هذه الخلافة وأنت عاجزٌ فيها، أظهرْ للناسِ وأعلن اعتزالك وعدْ إلى حياتكَ كما تريد أن تعيشها!
ـــ كيف أنزعُ ثوباً ألبسني إياه الإلهُ والناس؟
ـــ نحن نتكلم باسم الإله والناس؟
ـــ أنتم بضعة أفراد تأتون خائفين وتتسلقون الجدرانَ وتضربون الأطفال والنساء!
ـــ ألا يُسكت أحدكم هذا الشيخ، كلماتهُ أحدُّ من أنصالِ السيوف!
تطلعوا في بعضهم البعض، كانت أظافرهم تتوغلُ في جلودهم، كانت وراءهم الليالي المدلهمات بالغضب والكره، كانوا يرون بيوت المدينة العالية كما يرون أصنام قريش، كانت المسافة القصيرة بينهم وبين الرجل القابع قرب القرآن، كأنها بحيرة من نارٍ ودم، لو خاضوها انقطعوا عن قوافل الناس، صارت بينهم هوة مملوءة بالجثث والصرخات واللعنات، يرون المسافة القصيرة، يكادون أن يلمسوا شعرَ الشيخ، جسدَهُ الذي يتراءى لأولِ مرةٍ لهم، الجسدُ الذي غدا في لحظةِ الكرهِ صديقاً أليفاً!

أخذتهم موجة من الصمتِ والخوف، راحت الضرباتُ تقوى كأن أسنة رماحٍ فوق رؤوسهم، بلغ التوترُ بهم مداه، صرخَ أحدُهم منفلتاً:
ـــ ألا تفعلها يا محمد؟
نهض محمدٌ، هذا الاسم.. يا الله!
هذا الطفل الذي كنتَ تلاعبه، هذا الفتى الذي كنتَ تحبه.. كيف انقطعتْ به المسافاتُ، ورحلَ عن حضنك الدافئ وسكن كهفاً، هذا الذي كان صديق ربيبك محمد بن حذيفة، محمد الآخر الذي كرهك وأنت تغذيه بلحمِ كتفيك لأنك لم تعطهِ ولاية!
كيف شبّوا هكذا؟ كيف تسربت إليهم الأحقادُ الضارية في غفلةٍ من مصابيح التقوى والمودة؟
هو يتقدم، ليس معه آلة حادة، قتلة بلا سيوف، مصيرك ينتهى بلا خطة ما، بفوضى، يتطلعُ فيكَ مرعوباً، مرتعداً، هل يخنقك؟ أم يضربك؟
أمسكهُ من لحيته بقوة ثم شدها فآلمه ذلك، هذا الشاب يخترق الصفوف الخلفية ليضربَ الكبارَ، كيف نسى وتجرأ؟
يقول:
ـــ حولت الأمصار إلى بستان لأهلك!
ـــ ويلك أعَلى الله تغضب؟ هل لي إليك جرم إلا حقاً أخذته منك؟
رفع محمدٌ يده لكن لم يكن بها سلاح:
ـــ أنت لا تستطيع قتلي يا ابن صاحبي، أنا الذي كنتُ أجيء بيتكم وتتشبث برجلي، وتأخذ الحلوى من يدي.. لا يزال طعمها في فمك حتى الآن!
انهار محمد باكياً وتصدعت صفوفُ القتلة، وكاد محمد أن يخرج، قفز الرجال الآخرون، أحدهم يوقفه، والثلاثة الباقون يندفعون للشيخ لإسكاته:
ـــ تنازل يا عثمان!
ـــ أرحنا من هذا العذاب!
ـــ إنه عذاب سوف تستمرون به كثيراً!
ـــ اضربه يا تهامة!
ـــ ليس ثمة أداة للقتل هنا!
ـــ هذا ملقاط..
ـــ اغرزه في جسده..!
تصاعدت الأصواتُ من خارج الغرفة، ودخلت زوجته وخادم.
جاءت عثمان ضربة قوية بحديدة، دارَ جسمُهُ، وسقط دمهُ على الكتاب، اندفعت نائلة بصراخٍ عنيف، تمدّ يدَها نحو جسدهِ، فتقطعتْ بعضُ أصابعها.
تتالتْ الضربات على الكهل، في جزئه العلوي القريب لأيديهم المذعورة المتسرعة. الخادم استطاع أن يقتل واحداً منهم فقتله آخر!
جسدهُ الرقيق لم يكن يحتملُ كلّ هذا النخز، أما اكتفوا بضربة واحدة، كان يفكر، وقد تدفقَ نبعُ الدم غزيراً، وتراءت الصورُ أشباحاً، وهم يغرزون الحديد. كان يمد يده، كأنما ليسلم عليهم، أو يعطيهم شيئاً، وأدركَ بقوةٍ الآن كم كان راسخاً، صلباً، وأن قاتليه أقل شجاعة مما اعتقدوا، لكن لا بد أن يقول لهم شيئاً، فلا يزال أمامهم درب وعر طويل ربما:

ـــ إنني أسام .. حكم..!

صمتَ عثمان إلى الأبد.
الرجلُ الهادئ الساكنُ لا تزالُ عيناه مفتوحتين تحدقان بذهولٍ وألم.
القتلة نظروا بفزع إلى الجسد الملقى على الأرض، سقط بعد أن غاصت الحدائدُ في جسمهِ، تلاشى أنينهُ الخافتُ وانقطع تنفسهُ اللاهثُ لكن كلامَهُ لا يزال يدورُ في الهواء!
ترنحوا، وتصادموا، ثم فتحوا الباب..
غمغمة وصرخاتٌ:
ـــ قُتلَ عثمان!
تدفق الرعاةُ الجنود، كأن ثمة معركة انتهت تواً، والمهزومُ رجلٌ واحدٌ، وغدا بيته مفتوحاً، والأبوابُ تتكسرُ، والأقدامُ تهرولُ حيث الخزائن العامرة، عيونٌ مفتوحة على اتساعها، لا ترى الجثة، بل تحدقُ في الصناديق والأسوار والعقود والذهب والفضة، وتضعُ القطعَ النقدية في جيوبِها، وتسحبُ الثيابَ، وتتصادمُ الأجسامُ والأيدي، وتهرولُ الزوجة تصيحُ رافعة يدها الدامية، وتصطدمُ بالرجالِ المدججين بالسلاح، المنتفخي الجيوب، وهم يشمون روائحَ مذهلة في الغرفِ الخلفية، ويجدون أشياءً، وتمتلىءُ الممراتُ بالجندِ، ويعثرون على حلي النساء، تتنازعهُ الأيدي بقوةٍ وقسوةٍ، لكنها تتفق، تنظرُ العيونُ بعضها إلى بعض: أين هي؟ في بيتِ الخليفة؟ هذه غرفة زوجته، هذا مخدعُ الخليفة.. هنا كان ينام، وتمتد الدولة وراءه إلى البراري والمدن البعيدة.. يشعرون بموقف رهيب وهم يسرقون، يتوارون بسرعة!
ويأتي صوتُ زوجتهِ نائلة:
ـــ عثمان.. عثمان؟
ينضمّ للسلب آخرون تأخروا في العلم بموت الخليفة، يندفعون، يصطدمون بالعائدين من الغزو، المنتفخة جيوبهم، والذين يشعرون بالخفة والرغبة الشديدة في التخفي، والقادمون يحبسون أنفاسهم ويسرعون، مقلبين الأشياء بحدةٍ وسرعة وامتعاض، وهم يرون الخزائن فارغة إلا من بضع قطع نقدية متساقطة من زملائهم الهاربين، ويصطكّ بأسماعهم عويل امرأته:
ـــ أين أميرُ المؤمنين..!
كانت ترجو أن تكون الضربة التي رأتها لم تقض عليه، كان الرجال قد دفعوها بقوة، وأسقطوها، واصطك جبينها بالسجادة، وحدث صراخ وأنين وتدافع، ثم اختفى القتلة في حشد الرجال، فنهضت وظنت أنها ستعثر على زوجها مصاباً لكن حياً، ولكن الأشياء مبعثرة، ومقلوبة، والنعل كثيرة، والخرق متساقطة، والأجسام السريعة القوية لا تزال تدور في الغرف كعاصفةٍ من السواعد والسيوف، حتى وجدت زوجها على الأرض، واندفعت إليه عساه يكونُ حياً، لكن الدماءَ كانت تملأ ثيابه، وقميصه قطعة من كبده، وهو لا يزال ساخناً، لكن بلا نبض، لعل قلبه يرتجفُ الآن، لكن ثمة صمتٌ عميق داخله، ووجههُ السمحُ هادئٌ، يبعثُ برسالةِ حبٍّ أخيرة..
تضمهُ فيتوحد جسمان داميان..
ثم تجلس مغسولة بسوائل حارة، ويبدأ البيتُ بالغرقِ في الليل والهمس الرهيب:
ـــ وبعد.. مات الكهل.. ماذا نفعل؟

ـــ لا بد أن نتخلصَ من الجثة!
ـــ فليقذف إلى من يريده!
ـــ من يكون الخليفة؟
ـــ هل ننصّبُ خليفة أيضاً؟!
ـــ الليل قد ينتهي.. والصباح قادم وفيه.. سيندفع الناس إلينا!
ـــ دعوه مرمياً عند امرأته!
تتداخلُ الوجوهُ، تتغير الأجسامُ، والقتلة يتسربون هنا وهناك، واللصوص يخبئون مسروقاتهم، ويستعدون للصلاة في الفجر الذي يبدو أنه لن يأتي، والجثة ملقاة، محتضنة من المرأة التي لا تكف عن العويل، حتى تسرب نحيبها إلى صدورهم.
سمعوا ضجة أخرى، نساء يصحن من الأسفل، يرمقون بعضهن بعضاً بتوتر:
ـــ من هؤلاء؟
ـــ إنهن أرامل الصحابة.. يدعين عليكم ويحرضن!
ـــ دعونا نتخلص من هذا الرجل المتعب!
انتزعوه من بين أيدي زوجتهِ، حملوه، كان الظلامُ لا يزالُ منتشراً، ومضوا به إلى مقبرة في عمق الظلام..

صدر للمؤلف

القصة القصيرة:
*** لحن الشتاء، مجموعة قصصية سنة ١٩٧٥ عن دار الغد بالبحرين.**
*** الرمل والياسمين، قصص قصيرة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٢.**
*** يوم قائظ، دار الفارابي بيروت، ١٩٨٤.**
*** سهرة، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٤.**
*** دهشة الساحر، دار الحوار، حلب، ١٩٩٧.**
*** جنون النخيل، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٨.**
*** سيد الضريح، وكالة الصحافة العربية، مصر، ٢٠٠٣.**
الأعمال الروائية :
*** اللآلئ، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨١.**
*** القرصان والمدينة، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٢.**
*** الهيرات، رواية، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٣.**
*** أغنية الماء والنار، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٩.**
*** الضباب، دار الحوار، حلب، ١٩٩٤.**
*** نشيد البحر، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٤. طبعة ثانية في الهيئة العامة لقصور الثقافة المصرية، عدد ٧١، أكتوبر، ٢٠٠٣.**
*** الينابيع، جزء أول، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩٨.**
*** الينابيع، جزء ثان، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، الشارقة، ٢٠٠٠.**
*** الأقلف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٢.**
*** ساعة ظهور الأشباح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤.**
*** الأعمال الروائية غير الكاملة، الجزء الأول: اللآلئ، القرصان والمدينة، الهيرات، أغنية الماء والنار، طبعة تجديدية للروايات الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، سنة ٢٠٠٤.**
*** ساعة ظهور الأرواح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٤.**
*** رأس الحسين، الدار العربية للعلوم، بيروت، منشورات الأختلاف، الجزائر، ٢٠٠٦.**
*** عمر بن الخطاب شهيداً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٧، بيروت**
*** التماثيل، الدار العربية للعلوم، رواية، سنة ٢٠٠٧.**
الدراسات النقدية والفكرية:
*** الراوي في عالم محمد عبد الملك القصصي، دراسة نقدية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤.**
*** الاتجاهات المثالية في الفلسفية العربية الإسلامية، صدر الجزء الأول والثاني معاً بمجلد واحد، في ستمائة صفحة، ويعرضُ فيه المقدمات الفكرية والاجتماعية لظهور الإسلام والفلسفة العربية، وهو صادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، سنة ٢٠٠٥.**

*** الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية، الجزء الثالث، صدر سنة ٢٠٠٥ وهو يتناول تشكل الفلسفة العربية عند أبرز ممثليها من الفارابي حتى ابن رشد.**
*** الاتجاهات المثالية في الفلسفة العربية الإسلامية، الجزء الرابع تحت الطبع، وهو يتناول تكون الفلسفة العربية الحديثة في مصر خاصة والبلدان العربية عامة، منذ الإمام محمد عبده وبقية النهضويين والمجددين ووقوفاً عند زكي نجيب محمود ويوسف كرم وغيرهما من منتجي الخطابات الفلسفية العربية المعاصرة.**
*** نجيب محفوظ من الرواية التاريخية إلى الرواية الفلسفية، الدار العربية للعلوم، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠٠٧.**